ذكر بعض أوصاف المنافقين وخصالهم وإنزالها على منافقي زماننا

هـذا الفصل من أنفع فصول الكتاب -إن شـاء الله تعالى- ذلك أنـه يتنـاول أوصـاف المنافقين، كما جـاءت في كتاب الله ﷻ وفي سـنة رسوله ﷺ، حيث فضحهم الله ﷻ بذكرها، وفي ذلك تحذير للمسلمين الصادقـين مـن هـذه الصفـات، وتحذيرهم مـن الانخـداع بالمنافقين ومكرهم وخيانتهم وكذبهم وأساليبهم الملتوية.

كـما يتميز هـذا الفصل بإنزال هـذه الصفات عـلى منافقي زماننا اليـوم وفضحهـم بهـا، وبيـان نفـاق المنافقـين في واقعنـا المعـاصر، قـال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

والحديـث عـن صفات المنافقين في كل زمان ومكان يكشـف لنا طرفًـا مـن إعجاز القـرآن الكريم، حيث فضح السـابقين منهم برغم

obeikandi.com

خفائهم وتسترهم بنفاقهم، وبقيت آيات القرآن بين أيدينا هادية لمعرفة المنافقين في كل زمان ومكان، وذلك بتكرر هذه الصفات في منافقي كل زمان ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

إن حركة النفاق ليست قصة ماضية، ولكنها حقيقة باقية، تعددت مسمياتها، واختلفت وسائلها، واتحدت في أهدافها وسماتها، وكما قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والمنافقون الذين فيكم أشر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ. فقيل: وكيف ذلك؟! قال: إن أولئك كانوا يسرون نفاقهم، وإن هؤلاء يعلنون»[(١)].

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: (النفاق في عهد رسول الله ﷺ هو الزندقة فينا اليوم)[(٢)]. ويقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (والمنافقون ما زالوا ولا يزالون إلى يوم القيامة)[(٣)]. وقبل ذكر هذه الصفات تجدر الإشارة إلى مسألة مهمة، ألا وهي أن المتأمل في صفات المنافقين الواردة في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ ليجدها بكثرة وأشد خبثًا في منافقي زماننا، ولا يجد المرء عناء في التمثيل من الواقع على هذه الصفات. بل إن منافقي زماننا قد فاقوا سلفهم من المنافقين الأولين، فجاء نفاق أهل زماننا أغلظ نفاقًا من سابقيهم، وذلك من وجوه عدة أهمها:

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ٢١٢.

الوجه الأول: المنافقون الأولون قال الله ﷻ عنهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾[التوبة: ٦٥]، وقال الله ﷻ عنهم: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[البقرة: ١٤].

ومنافقو زماننا يجاهرون المؤمنين ويصارحونهم بالاستهزاء والسخرية، ويتهمون العلماء والدعاة بالسَّفه والانغلاق، ويظهرون المودة والولاء والتبعية لأعداء الإسلام، دون رادع من إيمان أو خوف أو ورع.

الوجه الثاني: المنافقون الأولون إذا وضح لهم خطؤهم وبين لهم حكم عملهم أو قولهم في الدين وأهله، وانكشف أمرهم وحكم فعلهم وقولهم، جاؤوا معتذرين، مظهرين الندم، ملتمسين العفو، كما حدث في غزوة تبوك وغيرها.

ومنافقو زماننا حادوا الله ورسوله بأقوالهم وأفعالهم، ولمزهم للدين وأهله، وإفسادهم في الأرض وعدم الإصلاح، وأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، بدعواتهم بالاختلاط والسفور، وإدخال السينما للمجتمع والدعوة لحضوره.. والدعوة للاختلاط والدعوة لإقامة الحفلات الغنائية لا داعي لها، وإذا نوصحوا مشافهة أو كتابة تكبروا وتغطرسوا، وكتبوا النقد والردود، وأوغلوا في الكبرياء، وربما تعاموا عن النصح، فلم يقبلوه اعتزازًا بالإثم.

الوجه الثالث: المنافقون الأولون أرادوا تكوين مقر لإدارة مكرهم وكيدهم للأمة، فدمر هذا المقر في أسرع وقت افتضح أمرهم، وبذلك انطفأ عن الأمة كثير من شرورهم، لأنه لو تم لهم ذلك المقر والله أعلم لكان بؤرة ومرصدًا لكل من يحاد الله ورسوله.

أما منافقو زماننا فمقراتهم عديدة وجمعياتهم ومؤسساتهم الاستخبارتية كثيرة، تزداد يومًا بعد يوم، شيدت إرصادًا لمن حارب الله ورسوله، ولزعزعة الدين، ومسخ الأمة، ليصبح هذا الكيد والمكر في جسد الأمة يطبع وينشر بالآلاف بل بالملايين، والعجب إن هذا النفث السام يتقاضون عليه المليارات، والأنكى والأمرُّ أن هذا الكيد والمكر يصل إلى البيوت والمؤسسات، ويعم المدن والمحافظات والقرى والمراكز والهجر.

الوجه الرابع: المنافقون الأولون يعرفون بهذه التسمية فقط، ومن وقع عليه هذا الوصف (منافق)، أو حام حوله، حذره الناس وتحرزوا من شره.

أما منافقو زماننا فقد انطلوا على الناس، وخرجوا بغير اسمهم الشرعي، وذلك زورًا وبهتانًا فهم ربما كانوا أدباء -محررين- كتابًا- دعاة تحرير-دعاة للتراث الشعبي-ليبراليين-علمانيين-دعاة عولمة- دعاة للحداثة والتجديد للحوار- وتقمصهم أحيانًا ثياب الدين،

زيـادة في التلبيـس والغش والادعـاء والزور، ثم خلعـوا هذا الثوب ومزقوه بعد انقضاء مآربهم.

الوجـه الخامس: المنافقون الأولـون لم يتخصصوا في الهجوم على الشريعة وأصولها بشـكل محكـم ومنظم، فلم يعهد إنهـم نظموا حملة للطعـن في تعاليـم الإسـلام، مثل وجـوب الحجاب، أو جـواز تعدد الزوجات، أوتحريم الاختلاط.

أمـا منافقو زماننا فنجد من إعراضهـم عن التحاكم إلى شرع الله وصـد الناس عن الحكم بما أنـزل الله بتدبيرهم ومجاهرتهم بالحملات المحمومـة الآثمة، ويتقاسـمون أدوارهـا على عفاف المـرأة وكرامتها وعـلى تعدد الزوجات، فلهم التنظيـم المتواصل على إباحة الاختلاط وشـيوع الرذيلة وتعطيل الشريعة، واعتراضهم على وجود هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي من عقائد الإسـلام، وواجب من واجباتـه، ونقدهـم الشـديد لهم ولمز المؤسسـات الشرعيـة والخيرية، وهذا المكر والهجوم يسـتخدم فيه التضليل بالأثـير والقلم والصورة وكل وسيلة متاحة لهم. وعجبًا لبعض بلاد المسلمين الذين لم يعرضوا هـؤلاء حتى للمسـاءلة، بينما لو تعرضوا لدسـتور الدولة أو حكامها بالنقد لحوسبوا وعوقبوا.

الوجه السادس: المنافقون الأولون يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، ويحاولون جاهدين ألا يعرفهم أحد، لأنه لو ظهر أمرهم لأدبهم المجتمع المسلم بالهجر والزجر والفضح والمقاطعة.. ولحصل الحذر من التعامل معهم، ولردت مقالاتهم.

أما منافقو زماننا فيعلنون مكرهم وأفكارهم وأقوالهم شاهرة ظاهرة، دون حياء من الله أو حياء من الناس، ولا يستخفون من أحد، بل يتصدرون منابر الكلمة، وتبرز صورهم في القنوات الإعلامية، يشاهدهم ملايين الناس بالصوت والصورة، وقد شرحوا بالنفاق صدرًا دون حياء أو استخفاء[1].

الوجه السابع: المنافقون الأولون تطبق عليهم الأحكام العامة فيما يقولون ويعملون: صغروا أم كبروا كغيرهم من الناس.

أما منافقو زماننا فينطق أحدهم بالكفر، ويتشدق بالردة، ويوغل في هدم الدين بكل جرأة وسخرية، بلا رقيب ولا رادع، تحت مظلة (حرية الرأي)، وربما قيل زورًا: (هذا القول لا يعبر إلا عن رأي صاحبه).. أو قيل زورًا وبهتانًا: (إن هذا يسمى بالرأي المعاكس)، وقد شرحوا بالكفر صدرًا.

---

(١) انظر: (دركات حضارية للمنافقين والمنافقات) عبدالله الجوير، موقع ملتقى أهل التفسير.

الوجه الثامن: المنافقون الأولون لا يتعرضون للفتيا أو القول في تفسير الشريعة أو القضايا التي تمس الأمة، لأن هذا ليس من شأنهم فللعلم والإفتاء رجالهما المعروفون، ومرد الأمر إلى أهل الحل والعقد.

أما منافقو زماننا فيفتون ويفسرون ويكتبون، ويغيرون دلائل الآيات والنصوص، ويبدّعون، ويكفّرون، ويفسّقون وفق أهوائهم وأذواقهم ومشاربهم، ويطرحون للنقاش كثيرًا من الأصول والثوابت، التي تعلم من الدين بالضرورة بحجة التحليل واستطلاع الآراء، وبحجة حرصهم على المجتمع وطبقاته وشرائحه ورئته التي يتنفس بها.. ولكن في النفس غرض وفي القلب مرض. حتى قال أحدهم: (إن الولاء والبراء بدعة) برغم كثرة النصوص المحكمة الدالة على أنه أوثق عرى الإيمان، وأصل من أصول الدين.

الوجه التاسع: المنافقون الأولون منبوذون عن تولي الولايات والمسؤوليات إدراكًا لخطرهم، وأنهم لو تولوا أمرًا من أمور الأمة في سياستها أو تعليمها أو علاقتها وأسرارها.. لحصل بذلك فساد عريض، وأصبحت الأمة لقمة سائغة لعدوها في أي ساعة من نهار.

أما منافقو زماننا فقد تسللوا إلى ثغور الأمة، فأوجعوها طعنًا في إعلامها واقتصادها وغير ذلك، وصاروا أصحاب قرار مشؤوم على الأمة، وكلٌّ تولى هدم الإسلام من قبله.

الوجه العاشر: من نقل أمرًا من أمور المسلمين أو أحوالهم الخاصة أو العامة إلى الأعداء وصف بالنفاق والخيانة بالاتفاق، والمنافقون الأولون لم يعهد أو ينقل أنهم كاتبوا فارس والروم أو الحبشة أو غيرهم بالتحريش أو التأليب على قومهم، إلا بصورة خفية، وعلى حذر من اكتشافهم.

أما منافقو زماننا فقد تفننوا في استعداء الأمم غير المسلمة على المسلمين، وزودهم بما يحتاجون إليه، وتسابقوا إلى ذلك بالتواصل والزيارات والعلاقات والرسائل المتبادلة، وصوروا لهم المجتمع بصورة سيئة، وقاموا بدلالة أولئك على جوانب الضعف فيه، وأرشدوهم إلى الثغرات التي يمكن أن يتسللوا منها إلى الأمة، وأحرجوا حكوماتهم أمام العالم، وهاهي تطالعنا صحف الدول غير المسلمة بتقارير ورسومات وتصريحات، يجزم القارئ والمطالع لها أنها خطت وصيغت بأيد محلية ماكرة، وأصبحوا يكاتبون ويتخاطبون ويترافعون إلى ما يسمى بجمعية حقوق الإنسان ضد محاكم بلدانهم ولو كانت محاكم شرعية، فكانوا شؤمًا على بلدانهم، وإن زعموا أنهم وطنيون، وأنهم حريصون على حب الوطن وتوحيد أطيافه.

لذا لا يستغرب هذا العداء والكره للمسلمين وتجييش الجيوش ضدهم من قبل بعض الدول، وهذا في حقيقة أمره نفاق وتجسس وموالاة ومظاهرة وعمالة وخيانة ومداهنة.

الوجه الحادي عشر: المنافقون الأولون إذا مات أحدهم ربما تنحى عدد من أهل العلم والفضل عن الصلاة عليه، وصار هذا تعزيرًا وعبرة لمن سلك مثل سلوكه، وانقطع ضرره بموته وهلاكه.

أما منافقو زماننا فإذا مات أحدهم أظهر أصحابه الحزن والأسى على موته، وتتابعت كتاباتهم لتأبينه والعويل عليه في كل ناد، وأظهروا تاريخه، ولمعوا حياته، فجعلوها بطولية، حتى لربما افتتن بعض القراء من أبناء المسلمين بذلك الهالك، فأسرعوا لاقتناء كتبه وألفت فيه المؤلفات، واقتبس محبوه شيئًا من أقواله وأفكاره في كل مناسبة، وأصبح مكره يزعج الأمة، وَسُمه وشره يخرج من بين أطباق قبره.

وبعد وضوح خطورة المنافقين في واقعنا المعاصر، وأنهم أخبث وأخطر من المنافقين الأولين أسوق في الفقرات الآتية ما وقفت عليه في كتاب الله عزوجل وفي سنة نبيه ﷺ من صفات المنافقين، باذلًا الجهد في تنزيلها على منافقي زماننا، ممن يسمون أنفسهم حداثيين أو ليبراليين أو علمانيين أو مستنيرين!!!

وقبل ذكر هذه الصفات، أود التنبيه على أن بعض هذه الصفات قد يتلبس بها بعض المسلمين، ولا يكون بذلك منافقًا النفاق الأكبر، بل يقال: إن فيه شعبة أو خصلة من خصال النفاق، لا تخرجه عن الملة، كما أن من هذه الصفات من يوصف المتلبس بها بالنفاق الأكبر

المخرج من الملة، وذلك كما مر بنا في الفصل الأول من تعريف النفاق الأكبر والنفاق الأصغر والفرق بينهما.

كما أود التنبيه على أن الحكم على معين بالنفاق الأكبر لا يكون إلا بعد وجود الشروط وانتفاء الموانع.

أهم صفات المنافقين المذكورة في الكتاب والسنة:

أَجمل الإمام ابن القيم رحمه الله أهم صفاتهم في كلام نفيس خبير بالقوم، أنقله هنا بشيء من الاختصار، ثم أذكر بعد ذلك -إن شاء الله تعالى- تفصيلًا لأهم هذه الصفات، وأذيل ذلك كله بإنزال بعض هذه الصفات على منافقي زماننا من خلال كتاباتهم، من كلام مكتوب ومسموع في وسائل الإعلام المختلفة.

يقول ابن القيم رحمه الله في وصفهم:

١. دَرَست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودَثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفَلَت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحبونها، وكَسفَت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها.

٢. لم يقبلوا هدي الله الذي أرسل به رسوله ﷺ، ولم يرفعوا به رأسًا، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسًا. خلعوا

نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشَنَّوا عليها غارات التأويلات الباطلة؛ فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين.

٣. لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران؛ فالظواهر ظواهر الأنصار؛ والبواطن قد تحيَّزت إلى الكفار. فألسنتهم ألسنة المسالمين، وقلوبهم قلوب المحاربين. ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

٤. رأس مالهم الخديعةُ والمكر، وبضاعتهم الكذب والخَتْر، وعندهم العقل المعيشي أن الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

٥. قد نَهكَت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إرادتهم ونِيّاتهم فأفسدتها؛ ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

٦. لكل منهم وجهان: وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين. وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

٧. قد أعرضوا عن الكتاب والسُّنَّة استهزاءً بأهلهما واستحقارًا، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحًا بما عندهم من العلم، الذي لا ينفع الاستكثار منه أشَرًا واستكبارًا. فتراهم أبدًا بالمتمسكين بصريح الوحي يستهزئون ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[البقرة: ١٥].

٨. لهم علامات يُعرفون بها، مبينة في السُّنَّة والقرآن. بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان. قام بهم - والله- الرياء. وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن؛ فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلًا: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء: ١٤٢].

٩. أحدهم كالشاة العائرة بين الغَنَمين، تَيْعَر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تستقر مع إحدى الفئتين؛ فهم واقفون بين الجمعين، ينظرون أيُّهم أقوى وأعز قبيلًا ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[النساء: ١٤٣].

١٠. يتربصون الدوائر بأهل السُّنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم. وإن كان لأعداء الكتاب والسُّنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين؛ فلا تحتاج بعده دليلًا ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن

مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾[النساء: ١٤١].

١١. يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه، ويُشهِد الله على ما في قلبه من كذبه ومَيْنه؛ فتراه عند الحق نائمًا، وفي الباطل واقف على الأقدام). فخذ وصفهم من قول القدوس السلام ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾[البقرة: ٢٠٤].

١٢. أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[البقرة: ٢٠٥].

١٣. فهم جنس بعضه يشبه بعضًا. يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه. كم ذكَّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه؟ وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه؟ فاسمعوا أيها المؤمنون ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ

أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

١٤. إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين. فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمدًا بعيدًا، ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضًا شديدًا ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١].

١٥. فكيف لهم بالفلاح والهدى! بعد ما أصيبوا في عقولهم وأديانهم؟ وأنى لهم التخلص من الضلال والردى! وقد اشتروا الكفر بإيمانهم؟ فما أخسر تجارتهم البائرة! وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقًا ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٢].

١٦. نَشَبَ زَقوم الشبه والشكوك في قلوبهم، فلا يجدون له مسيغًا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣].

تَبًّا لهم، ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان. فالقوم في شأن وأتباع الرسول ﷺ في شأن.

لقد أقسم الله جل جلاله في كتابه بنفسه المقدسة قسمًا عظيمًا يعرف مضمونه أولو البصائر. فقلوبهم منه على حذر إجلالًا له وتعظيمًا. فقال تعالى تحذيرًا لأوليائه وتنبيهًا على حال هؤلاء وتفهيمًا ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥].

١٧. تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يُعترض عليه، لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه؛ فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه. وكذلك أهل الريبة يكذبون، ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون، قد ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[المنافقون: ٢].

١٨. أحسن الناس أجسامًا، وأخلَبهم لسانًا، وألطفهم بيانًا، وأخبثهم قلوبًا، وأضعفهم جَنانًا؛ فهم كالخُشب المسندة التي لا ثمر لها. قد قُلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها، لئلا يطأها السالكون ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[المنافقون: ٤].

١٩. يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول إلى شَرَق الموتى، فالصبح عند طلوع الشمس، والعصر عند الغروب، وينقرونها نَقْر الغراب؛

إذ هي صلاة الأبدان، لا صلاة القلوب، ويلتفتون فيها التفات الثعلب، إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب. ولا يشهدون الجماعة؛ بل إن صلى أحدهم ففي البيت أو الدكان.

٢٠. إذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان. هذه معاملتهم للخلق، وتلك معاملتهم للخالق. فخذ وصفهم من أول المطففين، وآخر (والسماء والطارق) فلا ينبئك عن أوصافهم مثل خبير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. فما أكثرهم! وهم الأقلون، وما أجبرهم! وهم الأذلون، وما أجهلهم! وهم المتعالمون. وما أغرهم بالله! إذ هم بعظمته جاهلون ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

٢١. إن أصاب أهل الكتاب والسُّنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمَّهم، وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحص به ذنوبهم، ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم، وهذا يحقق إرثهم وإرث من عداهم، ولا يستوي من موروثه الرسول ﷺ ومن موروثهم المنافقون: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥٠ - ٥١].

وقال تعالى في شأن السَّلَفين المختلفين، والحق لا يندفع بمكابرة أهل الزيغ والتخليط، ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢٢. كره الله طاعاتهم لخبث قلوبهم وفساد نياتهم، فثبَّطَهم عنها وأقعدهم، وأبغض قُربهم منه وجواره، لميلهم إلى أعدائه؛ فطردهم عنه وأبعدهم. وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم، وأشقاهم وما أسعدهم. وحكم عليها بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده، إلا أن يكونوا من التائبين. فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

ثم ذكر حكمته في تثبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم. فقال وهو أحكم الحاكمين: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

٢٣. ثقلت عليهم النصوص فكرهوها، وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها، وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها، وصالت عليهم نصوص الكتاب والسُّنة فوضعوا لها

قوانين ردوها بها ودفعوها. ولقد هتك الله أستارهم، وكشف أسرارهم وضرب لعباده أمثالهم، وأعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلَفهم أمثالهم؛ فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر. وبينها لهم فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٩].

٢٤. أسروا سرائر النفاق فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم، وفلتات اللسان، ووسَمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان، وظنوا أنهم إذا كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد. كيف؟ والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٩ - ٣٠].

فكيف إذا جُمعوا ليوم التلاق، وتجلى الله جل جلاله للعباد وقد كُشف عن ساق؟ ودُعوا إلى السجود فلا يستطيعون ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٣].

أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم؟ وهو أدق من الشعرة، وأحد من الحسام، وهو دَحَض مزَلَّة، مُظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطئ الأقدام؛ فقُسِّمت بين الناس الأنوارُ،

وهـم عـلى قـدر تفاوتهـا في المـرور والذهـاب، أُعطـوا نـورًا ظاهرًا مـع أهل الإسـلام. كما كانـوا بينهـم في هذه الـدار، يأتـون بالصلاة والـزكاة والحج والصيام. فلما توسـطوا الجسر عَصفت على أنوارهم أهويـة النفـاق؛ فأطفأت مـا بأيديهم مـن المصابيح؛ فوقفـوا حيارَى لا يسـتطيعون المـرور؛ فـضُرب بينهـم وبـين أهـل الإيمان بسـور له بـاب. ولكـن قد حيل بـين القوم وبـين المفاتيـح، باطنـه- الذي يلي المؤمنـين- فيـه الرحمـة، ومـا يليهـم مـن قِبَلهـم العـذاب والنقمـة. ينـادون مـن تقدمهـم مـن وفـد الإيـمان، ومشـاعلُ الركـب تلـوح على بعـد كالنجوم. تبـدو لناظر الإنسـان ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديـد: ١٣]، لنتمكـن في هـذا المضيـق مـن العبـور؛ فقد طفئت أنوارنـا، ولا جـواز اليـوم إلا بمصبـاح من النـور ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ [الحديـد: ١٣]، حيـث قسـمت الأنوار. فهيهات الوقـوف لأحد في مثل هـذا المضمار! كيف نلتمـس الوقوف في هـذا المضيق؟ فهل يلوي اليومَ أحـد على أحد في الطريق؟ وهل يلتفـت اليـوم رفيـق إلى رفيـق؟ فذكروهـم باجتماعهـم معهـم وصحبتهـم لهم في هذه الدار، كما يذكر الغريب صاحب الوطن بصحبتـه له في الأسـفار ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾[الحديد: ١٤]، نصوم كما تصومون، ونصلي كما تصلون، ونقرأ كما تقرؤون، ونتصدق كما تتصدقـون. ونحج كما تحجون؟ فما الـذي فرق بيننا اليوم، حتى

انفردتم دوننا بالمرور؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الحديد: ١٤]، ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل ملحد، وكل ظلوم كفور: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٤ - ١٥].

لا تستطل أوصاف القوم؛ فالمتروك - والله- أكثر من المذكور. كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور. فلا خَلَت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات، وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات. سمع حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا يقول: اللهم أهلك المنافقين. فقال: «يا ابن أخي، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك»[1].

تالله لقد قَطَّع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين، لعلمهم بدقِّه وجله وتفاصيله وجمله.

٢٥. زَرع النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء. ومخرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة. فإذا تمت هذه الأركان الأربع: استحكم نبات

(١) وينسب هذا القول للحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ. ولعل المقصود بالمنافقين هنا المتصفين بنوعي النفاق الأكبر أو الأصغر.

النفـاق وبنيانـه؛ ولكنه بمدارج السـيول على شـفا جُـرُفٍ هارٍ؛ فإذا شـاهدوا سـيل الحقائق يوم تُبلَىَ السرائر، وكُشف المستور، وبعثر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور تبين حينئذ لمن كانت بضاعتـه النفـاق أن حواصلـه التـي حصلهـا كانـت كالسراب ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

٢٦. قلوبهم عن الخيرات لاهية، وأجسادهم إليها ساعية، والفاحشة في فجاجهم فاشـية. وإذا سـمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسـية. وإذا حـضروا الباطل وشـهدوا الزور انفتحـت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم واعية.

فهذه -والله- أمارات النفاق. فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية. إذا عاهدوا لم يفوا، وإن وعدوا أخلفوا، وإن قالوا لم ينصفـوا، وإن دُعـوا إلى الطاعـة وقفـوا، وإذا قيل لهـم تعالوا إلى مـا أنـزل الله وإلى الرسـول صَدَفـوا، وإذا دعتهـم أهواؤهم إلى أغراضهـم أسرعـوا إليهـا وانصرفـوا. فذرهم ومـا اختاروا لأنفسـهم من الهوان، والخزي والخسران. فلا تثق بعهودهم ولا تطمئن إلى وعودهم؛ فإنهم فيها كاذبون، وهم لما سواها مخالفون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم

مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧][1].

ويضم إلى ماذكره ابن القيم رحمه الله في وصف المنافقين الصفات التالية:

٢٧. قلة ذكرهم لله ﷻ وتكاسلهم عن الصلاة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله وهو يعدد فوائد الذكر:

(إن كثرة ذكر الله ﷻ أمان من النفاق، فإن المنافقين قليلو الذكر لله ﷻ، قال الله ﷻ في المنافقين: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال كعب: من أكثر ذكر الله ﷻ برئ من النفاق. ولهذا -والله أعلم- ختم الله تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩]، فإن في ذلك تحذيرًا من فتنة المنافقين، الذين غفلوا عن ذكر الله ﷻ، فوقعوا في النفاق، وسئل بعض الصحابة رضي الله عنهم عن الخوارج: منافقون هم؟ قال: لا، المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلًا. فهذا من علامة

(١) مدارج السالكين ١/ ٦٠٩-٦٢٦، ط. دار طيبة. (باختصار).

النفـاق قلـة ذكر الله ﷻ، وكثـرة ذكره أمان مـن النفاق، والله ﷻ أكـرم من أن يبتلي قلبًا ذاكرًا بالنفـاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله ﷻ)[1].

٢٨. الاستهزاء بآيات الله ﷻ والجلوس مع المستهزئين بها، قال الله ﷻ: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

٢٩. الإفساد في الأرض وتسميتهم ذلك إصلاحًا، قال الله ﷻ عنهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

٣٠. التستر بالدين وببعض الأعمال المشروعة للإضرار بالمؤمنين والتفريق بينهم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٧].

وسـيأتي في الفصـل القـادم -إن شـاء الله- حديـث مفصل عن مساجد الضرار وخطرها.

٣١. رمي المصلحين بالفسـاد والإفساد والسـفه. وهي سنة فرعونية قالهـا فرعون لموسـى عليه السـلام، حيث وصف نفسـه بقوله:

(١) الوابل الصيب ص ١١٠.

﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وقال عن موسى عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. وها هم المنافقون يقول الله ﷻ عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

٣٢. مُرجِفون: فليس لهم من هَمٍّ عند المحن والشدائد إلا الإرجاف، والتخويف، وتثبيط العزائم، وإرهاق الهِمَم.. إنهم السوس الذي ينخر في صفوف المؤمنين، محاولين تحقيق ما لم يستطع العدوّ تحقيقه في الأمة، فيشقون الصفوف، ويثيرون الفتنة، ويحاولون زعزعة أي تماسك للمؤمنين: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

٣٣. يتولّون الكافرين ويتنكرون للمؤمنين: زاعمين أنّ العزة عند الكافرين، فيسعون لها عندهم، لكنهم لن يجدوها إلا عند الله العزيز الجبّار: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

فهم أسرع الناس توافقًا مع اليهود والنصاري في شدائد الأمة، قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

٣٤. البذاء والبيان: عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**الحياء والعِيّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق**»(١).

قال الترمذي: «والعِيّ قلة الكلام، والبذاء هو الفحش في الكلام، والبيان هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيوسّعون في الكلام، ويتفصّحون فيه، من مدح الناس فيما لا يُرضي الله عز وجل». فمن علامات النفاق سلاطة اللسان على المسلم، قال تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، يقابل ذلك لين الخطاب للكافر والفاسق.

٣٥. يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

كما أن في قلوبهم مرض الشهوة، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

٣٦. النكول عن الجهاد وتسميته بالفتنة: قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

قال ابن كثير: يقول الله تعالى: «ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿ائْذَن لِّي﴾ [التوبة: ٤٩]، في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ [التوبة: ٤٩]،

(١) سبق تخريجه.

بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[التوبة: ٤٩]، أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا»[(١)]. وقد قال الرسول ﷺ: «**من لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من شعب النفاق**»[(٢)].

٣٧. لا ينفعهم القرآن بل يزيدهم رجسًا إلى رجسهم: قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

٣٨. مظاهرة الكافرين ومعاونتهم على المؤمنين: وهذه من أخص صفات المنافقين، فهم في الظاهر مع المؤمنين، لكنهم في الحقيقة مع الكفار: عيونًا وأعوانًا لهم، يكشفون لهم عورات المسلمين وأسرارهم، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[المائدة: ٥١ - ٥٢].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٦١.

(٢) سبق تخريجه.

قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية بعدما ذكر الخلاف في المعني بهذه الآية: (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعًا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًّا من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين)[1]. ومن علامة ذلك ظهور رحمة المنافقين في قضايا الكفار ومصائبهم والفتور وعدم الاكتراث عن قضايا المسلمين.

٣٩. الرضا بأسافل المواضع خوفًا وجبنًا. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦].

قال ابن كثير: «يقول تعالى منكرًا وذامًّا للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦]، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاما، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾[2] [الأحزاب: ١٩].

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٣٩٨ ت أحمد شاكر.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٩٦ ط. دار طيبة.

٤٠. يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا. قال الله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رجالًا من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٨٨][(١)].

٤١. يعيبون العمل الصالح ويرضون ويسخطون لحظوظ أنفسهم: قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

قال ابن كثير: (يقول تعالى: ﴿ وَمِنْهُم ﴾، أي: ومن المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ ﴾، أي: يعيب عليك ﴿فِى ﴾، قسم ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾، إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم)[(٢)].

---

(١) البخاري (٤٥٦٧) مسلم (٢٧٧٧).

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٦٤ ط. دار طيبة.

٤٢. بخلهم وقبض أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله ﷻ. قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[التوبة: ٥٤]، وقال عنهم: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، ويضمون إلى هذا البخل تضييقهم على المؤمنين في أرزاقهم،وينفرون الناس عن الإنفاق عليهم قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾[المنافقون: ٧].

يقول سيد قطب رحمه الله عن هذه الصفة الدنيئة: (وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع، ولؤم النحيزة. وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان. ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة، كما هي في حسهم، فيحاربون بها المؤمنون، إنها خطة قريش، وهي تقاطع بني هاشم في الشعب، لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ، ويسلموه للمشركين!

وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية ينفض أصحاب رسول الله ﷺ عنه تحت وطأة الضيق والجوع!

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلداهم من بطاقات التموين، ليموتوا جوعًا، أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة!

openkandil.com

وهـي خطة غيرهم ممـن يحاربون الدعـوة إلى الله وحركة البعث الإسـلامي في بلاد الإسـلام، بالحصار والتجويع ومحاولة سـد أسباب العمل والارتزاق.

وهكـذا يتوافى على هذه الوسـيلة الخسيسـة كل خصوم الإيمان، من قديم الزمان، إلى هذا الزمان... ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهـم القرآن بها قبل ختام هـذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧] ... ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين، فليسـوا هـم الذيـن يخلقون رزق أنفسـهم. فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين!

وهكـذا يثبـت الله المؤمنين ويقـوي قلوبهـم عـلى مواجهة هذه الخطة اللئيمة والوسـيلة الخسيسـة، التي يلجأ أعداء الله إليها في حربهم)[1].

٤٣. اشـمئزازهم وكراهيتهم بالاحتجاج بالقرآن قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢]، ويقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

(١) في ظلال القرآن، الآية (٧) من سورة المنافقين.

٤٤. الاهتمام بالمظاهر وإهمال المخابر والسرائر، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

٤٥. من خصال المنافقين مسايرة الناس وإرضائهم ولو سخط الله ﷻ، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

٤٦. المنافقون أشد الناس خوفًا من النقد، لأنهم يبطنون ما لا يظهرون فيخشوا انكشافه، قال الله ﷻ عنهم: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقال ﷻ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤][1].

٤٧. ذنوب الخلوات كثيرة عند المنافقين، لأنهم كما وصفهم الله ﷻ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾[2] [النساء: ١٠٨].

---

(١) انظر: تغريدات الشيخ عبدالعزيز الطريفي.
(٢) انظر: تغريدات الشيخ عبدالعزيز الطريفي.

٤٨. يختلف المنافقون والمنافقات على دنياهم، ولكنهم يجتمعون على كره الحسبة وأهلها، وذكر النساء المنافقات مع الذكور في حرب وكره أهل الحسبة، لأن الشهوات واحدة ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾[1] [التوبة: ٦٧].

٤٩. من صفات المنافقين في القرآن حرب الحق بواسطة حرب أهله ورموزه، لأن لكل فكر حاملًا، فإذا سقط الحامل سقط المحمول[2].

٥٠. المنافق يمدح من أعطاه ولو كان على باطل، ويذم من منعه ولو كان على حق، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[3] [التوبة: ٥٨].

٥١. الصحابة ﷺ يرون أن من صفات المنافقين المجادلة عن المنافقين، ومن علامات النفاق بغض الصحابة ﷺ، كما جاء في الحديث الصحيح: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار».

٥٢. سوء الظن بالله ﷻ، وتسخطهم لأقدار الله ﷻ. يقول الله ﷻ عنهم يوم أحد: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ

(١) انظر: تغريدات الشيخ عبدالعزيز الطريفي.
(٢) انظر: المصدر نفسه.
(٣) انظر: المصدر نفسه.

ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال عنهم ﷻ: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

٥٣. مصابون في قلوبهم بأمراض الشبهات والشهوات. في قلوبهم زيغ يتبعون المتشابه، ويعرضون عن المحكم.

قال الله ﷻ: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣].

*****

obeikandl.com

إنزال بعض صفات المنافقين الأولين المذكورة في الكتاب والسنة على منافقي زماننا:

تشابهت قلوب المنافقين الأولين والمعاصرين، وتشابهت صفاتهم، ولا غرابة في ذلك، فأصولهم ومعينهم واحد، ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]، فهم يجمعهم الطغيان والاستكبار والكذب والخداع والإفساد ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، مع أن منافقي زماننا قد فاقوا أسلافهم بصفات أخرى ذميمة، سبق ذكرها في أول الفصل، كما أنهم فاقوهم في الوسائل الماكرة التي ينشرون بها خداعهم وإفسادهم، لم تكن موجودة في أسلافهم من المنافقين الأولين، فجاء النفاق المعاصر أشر وأغلظ من النفاق الغابر، والصفات المشتركة كثيرة لا يتسع لها المقام، ولكني سأكتفي هنا بذكر أهم الصفات الرئيسة، التي شابه فيها المنافقون المعاصرون سلفهم من المنافقين الأولين، لتدل على ما سواها من الصفات التي دونها.

وأود هنا التأكيد على أن من وجدناه يتصف بهذه الصفات، فإن ذلك لا يعني الحكم عليه بعينه بالنفاق الأكبر المخرج من الملة، بل لا بد من توافر شروط الحكم وانتفاء موانعه في المعين، إذ قد يكون بعضهم جاهلًا أو متأولًا.

ومن أهم هذه الصفات المشتركة ما يلي:

• **الصفة الأولى والثانية:**

١. صفة الخداع والكذب.

٢. صفة التذبذب وسياسة ذي الوجهين.

وصف الله ﷻ المنافقين بهذا الوصف في كتابه الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢ - ١٤٣]، وقال عنهم الرسول ﷺ: «**مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة**»(١). ووصفهم الرسول ﷺ بقوله: «**.. وتجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**»(٢).

وإذا تأملنا هذه الصفات وجدناها تنطبق أشد الانطباق على منافقي زماننا اليوم، الذين ظهر كذبهم وخداعهم وتذبذبهم، فصرنا نرى منهم الوجوه والمعايير والمواقف المختلفة والمتناقضة، يدعون شيئًا ويناقضونه بأفعالهم، ومواقفهم ليس لهم أصل ولا ضوابط

(١) مسلم (٢٧٨٣).

(٢) البخاري (٣٤٩٤)، مسلم (٢٥٢٦).

obeikandi.com

ينطلقـون منهـا، وإنما كما قال الرسـول ﷺ في حديـث الفتن «**تعرض الفتـن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتـة بيضـاء، وأيما قلب أشربهـا نكتت فيه نكتة سـوداء، حتى تكون القلـوب عـلى قلبـين: قلب أبيـض كالصفـاء لا تضره فتنة مـا دامت السـموات والأرض، وقلب أسـود مربـاد كالكوز مجخيًـا، لا يعرف معروفًـا ولا ينكر منكرًا، إلا مـا أشرب من هواه**»[1]. فالمحرك لهم هو الهوى. ومن كان هذا شـأنه أتى بالغرائـب والعجائب المرة والمواقف المتضـادة والمعايـير المتناقضـة. فنجـده في قضية واحـدة يتعامل معها بوجـه، وإذا كان هـواه لا يتناسـب مع هذا الوجه تعامـل معها بوجه آخـر مضـاد، مـع أن القضية واحـدة. وهذا نجـده واضحًـا في نفاق الليبراليين اليوم، وذلك من خلال مقالاتهم وكتبهم ومواقفهم.

وحتى لا نتهم بالتجني على القوم أسوق الأمثلة الآتية، التي تدل عـلى تذبذهـم وخداعهم واتباعهم لسياسـة ذي الوجهـين، الذي قد أشرب هواه. مقتبسًـا بعض هذه الأمثلة وبتصرف من مقالة بعنوان: (الليبرالية السعودية والتأسيس المأزوم) لسلطان العميري.

١. يدعـو دعـاة الليبرالية -نظريًـا- إلى الحريـة الفكرية والحرية الفرديـة، ويطالبـون بفتـح الباب لحرية الـرأي، ولكنهم في الممارسـة

(١) مسلم (١٤٤).

الواقعية تتهاوى هذه المطالبات في أول محطة من المواجهة، حيث نجدهم يمارسون أبشع أنواع الإقصاء والإرهاب الفكري إزاء من يتهمونهم بهذه التهمة، ولا سيما إذا تسلموا موقعًا سلطويًّا. فكم منعت من أصوات من جراء الحرب الضارية التي يقيمها التيار النفاقي الليبرالي على الحرية الفكرية، ولا أدل على ذلك مما يمارسه القوم من إرهاب فكري ومصادرة لحرية الرأي تجاه بعض أهل العلم، حينما يبدون رأيهم في المرأة وعملها وحجابها، أو ما يقوم به رجال الحسبة من إنكار للمنكرات ومحاربة للفساد والرذيلة. فحرية الرأي عندهم حلال لهم حرام على غيرهم. والمرأة إذا اختارت الحجاب لا يعدّون ذلك ممارسة لحريتها الشخصية، ولا يحترمون أصلهم في الحرية، بل يوجهون أقلامهم في السخرية بها والعدوان عليها، ولم يخرج «الليبراليون المنافقون» عن هذه الحقيقة، فهم يتحولون إلى مستبد ثقافي عندما تأتي تطبيقات حرية الفكر والرأي، فحرية الفكر هذه تُسلب عندهم عن التعليم الشرعي، فلابد من محاصرته وتبديله، والدولة مطلوب منها التدخل لتغييره أو إلغائه، بل إن مشاركة الأجنبي في هذا الطغيان على حرية الفكر أمر يدعون إليه، ومرغوب فيه أيضًا. وها هو العفيف الأخضر ينقلب على حرية الفكر، ويطالب بإغلاق جامعة بأكملها هي جامعة الزيتونة في تونس[1].

(١) حوار مع العفيف الأخضر في موقع (الحوار المتمدن) ٢٨/ ٨/ ٢٠٠٣.

وأيضًا حرية الرأي عندما تكون لبعض الإسلاميين، فإنها خطر يهدد البلد، ولا بد من إلغائه، والقضاء مطلوب منه محاكمتهم، وفي ذلك يقول العفيف الأخضر بعد تسجيل اعتراضه على طريقة محاكمة الرئيس التونسي ابن علي، مرشحًا الحركة الإسلامية في تونس للمحاكمة بدلًا عنه، فيقول: «هؤلاء الفاسدون الحقيقيون هم الذين يحق للقضاء أن يوقفهم في قفص الاتهام»[1]، وفي تجسيد لحالة الاستبداد الفكري عندهم والانقلاب على أصلهم في الحرية يشرع العفيف الأخضر في موطن آخر نوعًا من قمع الإسلاميين، فيقول: «أما القمع فلا يجدي إلا على المدى القصير، وشرط أن يكون إجراءً ظرفيًّا»[2].

وكذلك حرية الفكر عندما تأتي برسائل جامعية ترفض نفاق الليبرالية والحداثة، فإنها رسائل إرهابية مرفوضة[3]، والباحث هنا يعد جزارًا ثقافيًّا، والجامعة مسلخ ذاك الجزار يسلخ ويذبح فيه كل حداثي وليبرالي، وكل خطاب يرفض المفاهيم الليبرالية هو بؤس فكري، والمطبوعات التي تنقض وترد الليبرالية ومفاهيمها لا بد أن تمارس عليها الرقابة، ويمنع هذا الغثاء من الطبع والنشر، والحكومات المستبدة مدعوة لحصاره.

(١) مقال بعنوان (رسالة إلى القضاة) للعفيف الأخضر موقع الحوار المتمدن ١٨/٨/٢٠١١.

(٢) حوار مع العفيف الأخضر (موقع الحوار المتمدن).

(٣) الحداثة والليبرالية معًا على الطريق، شاكر النابلسي ص١١٣.

وعندما يسجل بعض العلماء موقفهم من العدوان على الأمة، فإن «المنافقين الجدد» يسارعون إلى إصدار بيانهم الشهير الموجه إلى مجلس الأمن والأمم المتحدة بعنوان: (البيان الأممي ضد الإرهاب)، يطالبون فيه بإقامة محاكم دولية، يعاقب فيها أولئك العلماء؛ لأنهم عبروا عن رأيهم بحرية تجاه طغيان يمارس على الأمة[1].

إذًا حرية الفكر والرأي في تصورهم هي نقد الإسلام وأصوله، وحق يمارسه الجميع، وهي ساحة للإبداع متاحة لكل متهوك وضال، أما نقد الليبرالية فهو إرهاب يطلب من الغرب محاربته، والأنظمة الظالمة مدعوة لقمعه ومحاصرته، وعليه فالحرية نادٍ خاص بالليبراليين.

٢. يدعو التيار النفاقي الليبرالي في كل محفل وعند اقتراب معارض الكتاب إلى ضرورة الانفتاح المعرفي والمجتمعي على العالم، والسماح بنشر كل مؤلف من غير تضييق عليه أو تحريض، ويسعى إلى إلغاء الرقابة المشددة على المنتجات الورقية وغيرها.. ولكننا نفاجأ بأنه في بعض خطاباته يتبنى الدعوة إلى الرقابة المشددة على منتوجات التوجه الديني من الكتب والمجلات والأشرطة والمواقع والقنوات والبرامج، ويدعو، ولو بطرف خفي إلى التضييق عليها وتكثيف الرقابة والمراقبة.

(١) نشر البيان في صحيفة إيلاف الإلكترونية إعداد العفيف الأخضر.

٣. يلاحظ المراقب أن التيار النفاقي الليبرالي جعل من أبجدياته اليومية الدعوة إلى محاربة التطرف والتشدد والإرهاب، وكرر على أسماع الناس أن هذه المحاربة هي التي تؤدي إلى الاعتدال والاستقرار.. ولكننا نجده يتناقض في مواقفه من التطرف والإرهاب، حيث يغض الطرف عن تطرف آخر بلغ من الشطط والشذوذ مبلغًا كبيرًا، والغريب أن هذا التطرف ظهر للناس، وهو يحمل اسم الليبرالية، فقد مورست شناعات دينية تحت ظل هذا الاسم، فظهر للعيان الاستهزاء بالنبي ﷺ والتشكيك في القرآن تحت مظلة «الشبكة الليبرالية السعودية». كما نجد هذا التناقض في مواقفهم مما يقوم به الرافضة الشيعة في المنطقة الشرقية أو في منطقة نجران من إرهاب ومواجهات دامية مع رجال الأمن وإحراق لمقرات حكومية، حيث يلتزمون الصمت إزاء هذه المواجهات، وكأن شيئًا لم يكن، فلماذا لا يكون موقفهم واحدًا من جميع الأطراف.

٤. لا يكاد يهدأ أكثر التيار النفاقي الليبرالي من توجيه الذم إلى المجتمع ووصفه بأنه متخلف لم يعرف التطور ولم يذق طعم التقدم، ولم يعش الارتقاء، وأنه ما زال يعيش في عصر التقييدات المكانية والزمانية، وأنه لم يخرج عن البداوة والقبيلة.. ثم نجد ذلك الذم يقف عند دائرة المجتمع فقط، ولا يصل إلى السلطة الحاكمة، بل يصل في بعض المظاهر إلى الإطراء المبالغ فيه من شأن السلطة والإعلاء من رقيها وتقدمها، مع أن السلطة جزء من المجتمع.

٥. يشن عدد من التيار النفاقي الليبرالي حملة لا هوادة فيها على التصنيف الفكري للمجتمع، ويعلن الإنكار القاطع لتقسيم المجتمع إلى تيارات معرفية متدافعة، ويصور ذلك على أنه أحد النواقض الكبرى لمفهوم الوطن الواحد، ويدعون حرصهم على لحمة الوطن، ولكن المراقب للمنتج الليبرالي يجد حضورًا مكثفًا للتصنيف والتقسيم، فهو من أكثر التيارات التي تقسم المجتمع إلى متشدد ومعتدل ومتطور ومتحجر ومتفتح ومنغلق وعقل أحادي وعقل تعددي، وغيرها من التصنيفات التي لا يكاد تخلو منها الصحافة الليبرالية.

٦. يدَّعي دُعاةُ النفاق الليبراليون أنهم هم الحريصون على مصلحة الوطن وحل مشكلاته، ثم إذا بهم يختزلون قضايا الوطن ومشكلاته في مشروعهم الأنثوي عن المرأة ومواجهة ظاهرة التدين في المجتمع ويدندنون على ذلك بشكل ممجوج يصل إلى درجة الإملال، فتراهم يبدؤون بالمرأة وينتهون بها، مستخدمين في ذلك أساليب السخرية والإقصاء والفجور في الخصومة مع مخالفيهم، وكأن ليس هناك في المجتمع قضايا أخرى تنخر وتفسد المجتمع كقضايا الاستبداد والبطالة والفساد الأخلاقي والمالي والإداري، حيث تجد السكوت المطبق عند القوم عن هذه القضايا وأمثالها، فأين التشدق بالحرص على مصلحة الوطن ومحاربة الفساد، والجواب يكمن في العقلية الليبرالية القائمة على المعايير المزدوجة والانتقائية والهوى والتناقض، فالحمد لله الذي عافانا من هذا البلاء.

٧. تدخلهم في بعض القضايا الخارجية، ولا سيما بعد الثورات العربية وسقوط رموز الظلم في هذه الثورات، حيث نجدهم يشنون حملة شعواء على التوجه الإسلامي في هذه الثورات وعلى رموزها، حتى لو اختار الناس الحكم بالشريعة، فإن شعار الحرية الذي ينادي به الليبراليون يختفي حينئذ، بل يحل محله ما يضاده من مصادرة الحريات والوقوف أمام اختيار الشعوب للإسلام، ومن ذلك هجومهم على ممارسة السياسة، كل هذا يسلب الفرد حريته.

ولم يكتف القوم بمصادرتهم لحريات الناس واختيار الشعوب للإسلام بل تحالف المنافقون الجدد مع الأنظمة الاستبدادية، وهذا انقلاب آخر على ما يدعون إليه من الحرية ونبذ الاستبداد وفي ذلك يكتب العفيف الأخضر مقالًا بعنوان: «كونوا حزب الملك لإنقاذ المغرب» وجه فيه رسالة للنخب المغربية يطالبها بالتحالف مع الملك المغربي لمواجهة الإسلاميين هناك، وعندما تفرض المشروعات الليبرالية على الناس بقوة السياسة، فهو أمر ناجح ومطلوب عندهم. يصف شاكر النابلسي طريقة (أبورقيبة) الاستبدادية في التغيير، بقوله: «الإستراتيجية الليبرالية البورقيبية الناجحة»[1]، وتحت عنوان: «أهمية الليبرالية البورقيبية»، يقول النابلسي: «إن استلهام الليبراليات

(١) العرب بين الليبرالية والأصولية والدينية. شاكر النابلسي ص٦١.

العربية لإستراتيجية الليبرالية البورقيبية هو خير حل لأزمة استلهام الليبراليات العربية»[١].

وعندما أراد الشعب التونسي محاكمة ابن علي وحكومته بجدية أكثر، وجه العفيف الأخضر رسالة للقضاء، قائلًا: «ليكن شعاركم الشارع ينبح»[٢]، ويرفض العفيف الأخضر حل الحزب التونسي الحاكم في السابق، ويعدّ منع الآلاف من أعضائه الترشح للرئاسة قرارًا تعسفيًّا[٣]، ويوافق على ذلك شاكر النابلسي الذي اعترض على حل الحزب الحاكم في مصر.

٨. يدعون أنهم لحمة من المجتمع يعيشون همّ مجتمعاتهم وأمتهم مع أنهم في حقيقة الأمر معزولون عن أمتهم وهمومها، قد عزلوا أنفسهم عن قضايا الأمة العربية والإسلامية، فلا حس لهم ولا كلمة عما يجري في سوريا وفي غزة وفي اليمن وفي العراق، وكأنهم يعيشون في كوكب آخر، بل تراهم يسخرون من المجاهدين الذين يقاومون الغزاة المحتلين، وظهرت عزلتهم عن أمتهم في مواقفهم الباردة الباهتة مما يمارسه أعداء الدين من النيل من رسول الإسلام محمد ﷺ أو من النيل من القرآن الكريم، فأين هم من ذلك؟

(١) المصدر السابق ص٥٦.
(٢) (رسالة القضاة) العفيف الأخضر (موقع الحوار المتمدن).
(٣) رسالة إلى منديلا (موقع الحوار المتمدن).

٩. ينادي الليبراليون بالحوار الحضاري، وعدم إقصاء المخالف، ثم ينقلبون عليه بممارساتهم وكتاباتهم السوقية، حيث نرى التعالي على القراء واحتقارهم.

إن التعالي على القراء والنرجسية التي تصاحب عرضهم لآرائهم هي صفة ظاهرة في خطاب «الليبراليين الجدد»، واحتقار كل فكرة لا ترجع إلى مبادئهم، وتسفيه مخالفيهم هي طريقة عندهم، ويتميز شاكر النابلسي عن بقيتهم في ذلك[١].

ويظهر الانحطاط الأخلاقي في الآتي: عنوان في كتاب «أيتها الجماهير الحمقاء»[٢]، ويصف شاكر النابلسي المجتمعات العربية بقوله: «الشارع العربي الأحمق»[٣]، ويقول أيضًا: «إن وظيفة المثقف الليبرالي، الدفاع عن الحقيقة ضد الغوغاء «الجماهير»»[٤]، ويصف النابلسي الإسلاميين بأنهم «خفافيش الكهوف وبقايا عظام القبور»[٥]، ويقول عن مشاركة بعضهم الإعلامية: «خرجت الغربان من أوكارها»[٦]، ويصف بعض منتقديه «قراء غوغاء وأغبياء،

(١) مقال (ليست كل الزهور تتفتح) شاكر النابلسي (موقع الحوار المتمدن).
(٢) (سجون بلا قضبان) ص١٤١.
(٣) (سجون بلا قضبان) ص١٤١.
(٤) العرب بين الليبرالية والأصولية ص٦٥.
(٥) المصدر السابق ص٥.
(٦) المصدر نفسه ص ١١.

ويصف الإخوان بأنهم (يحاورون حينًا حوار الثعابين، ويتمسكنون أحيانًا تمسكن الشياطين)[1].

• **الصفة الثالثة والرابعة والخامسة:**

٣. صفة السخرية بالدين وأهله.

٤. صفة اللدد والفجور في الخصومة.

٥. صفة فصل الحياة عن الشريعة.

قال الله ﷻ عن المنافقين الأولين ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾[التوبة: ٦٥].

وقال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[التوبة: ٧٩]، وذكر الرسول ﷺ من صفاتهم: «إذا خاصم فجر»، وقال عن صدودهم عن التحاكم إلى شرع الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾[النساء: ٦٠ - ٦١].

---

(١) المصدر نفسه ص٢٠.

obeikandl.com

وها هم منافقو زماننا ينالون من رموز الأمة وعلمائها ويتطاولون عليهم في صحفهم ومواقعهم بالسخرية والتنقص والتهم الكاذبة واللدد في الخصومة، فها هو أحدهم يتطاول على أحد هيئة كبار العلماء بأنه (يعد نفسه من العلماء) و(محسوب على هيئة كبار العلماء)[١].

وقد كتب أحدهم مقالًا دعا فيه إلى أن تكون الدولة بعيدة عن الدين، لا تقبل تدخلات علماء الشريعة الذين وصفهم بالمتشددين[٢].

وآخر يطالب بأن يكون الواقع في السعودية بعيدًا عن أي ثوابت دينية[٣].

وها هي إحداهن تقول: (وإذا كنا سنعود في أمور الحياة المعتادة إلى هيئة كبار العلماء فماذا أبقينا للوزراء والمسؤولين، أوليس هذا هو الكهنوت بعينه؟ بل إنه ولاية الفقيه، التي تسيطر على جميع مفاصل الحياة، ولا يستطيع من يخضعون لها أن يفعلوا شيئًا يمس حياتهم بلا فتوى منه)[٤].

وهذا مقال لأحدهم يسخر فيه بالشريعة، ويرى أنها لا تصلح لزماننا، حيث يقول:

---

(١) انظر جريدة الجزيرة عدد (١٢٣٨٦) بعنوان (ما مغزى تهديدات وترويعات الفوزان).
(٢) انظر المقال في جريدة الوطن العدد (٢٠٥٨) تاريخ ٢١/ ٤/ ١٤٢٧.
(٣) مقابلة مع تركي الحمد في برنامج إضاءات تاريخ ٢٥/ ٦/ ١٤٢٩.
(٤) انظر المقال في جريدة الرياض العدد (١٦٧٣٦) تاريخ ٢٠/ ٤/ ٢٠١٤.

في الماضي وقبل الدخول في عصر الحداثة، كان المجتمع يعيش تبعا للظروف الطبيعية من جهة، وتبعًا للعادات والتقاليد من جهة أخرى، لذا كانت الأحكام الفقهية في تلك الظروف تلعب دورًا مهمًّا في حياة المجتمع، وذلك من خلال حفظ النظام الاجتماعي ورفع النزعات بين الناس.

وكان الناس في ذاك الوقت يعيشون حياتهم اليومية بشكل طبيعي، مقترنة بأحكام الحلال والحرام الفقهية، وبالتالي فإنهم يعتقدون بأن سلوكياتهم خاضعة لتعاليم الشريعة الإسلامية، فقد كان نمط الحياة والمعيشة بسيطًا، والفقهاء ورجال الدين قادرين على التعامل مع هذا النمط من الحياة، فكان الخطاب الديني منسجمًا ومتفاعلًا مع المجتمع آنذاك.

وفي العصر الحديث، استقبل الناس حياة جديدة تختلف كليًّا عن نمط الحياة السابقة، اقترنت بمفاهيم جديدة مثل «التقدم والحضارة» و«التنمية»، التي وقف أمامها الخطاب الديني جامدًا باعتماده على الأحكام الفقهية القديمة.

هذا الموقف لم يكن قاصرًا على الجمود وحسب، بل امتد إلى مقاومة التغيير والتطوير في المجتمع، وبالتالي تعطيل أهداف التنمية

تحت غطاء أحكام الحلال والحرام في الدين كستار، لتغطية العجز في التعامل مع متطلبات ومتغيرات العصر الحديث)[1].

وما أشبه كلام هذا المفتون بكلام أستاذه النابلسي حين قال عن عصرنا بأنه (العصر الذي بدأت فيه القوانين الوضعية الاجتماعية والاقتصادية الإنسانية تأخذ مكان الكثير من القوانين والأنظمة الدينية، التي لم تعد تتماشى ونظام الحياة الإنسانية في هذا العصر)[2].

وقد سبق نقل كلام أبي الليبرالية الجديدة النابلسي، وهو يفقد صوابه، فيلج في الخصومة ويفجر فيها بكل لدد وحقد، حيث سبق ذكر سخريته بالإسلاميين، ووصفهم بأنهم (خفافيش الكهوف) و(بقايا عظام القبور)، ويصف مشاركتهم الإعلامية بقوله: (خرجت الغربان من أوكارها)، ومن لددهم وفجورهم في الخصومة ما كتبه أحدهم تحت عنوان (صراخ في الظلام)، يسخر فيه من المحتسبين في تحذيرهم من ابتعاث المراهقين والمراهقات إلى بلاد الغرب، وإنكارهم على ممارسة الرياضة في مدارس البنات، فيقول: (يتلخص موضوعي اليوم في الظلاميين الذين يصرخون على كل خطوة نخطوها إلى الأمام، ولا سيما إذا كانت المرأة طرفًا فيها.. إلى أن قال: هكذا هي المرأة، عليها أن تكون تابعة في صغرها وفي كبرها.

(١) انظر جريدة الوطن عدد (٤٩٤١) عنوان المقال (الخطاب الديني وتعطيل التنمية).
(٢) الإسلام وجواب الحاوي ص١٣٨.

أما شريكةً فهذا غير جائز، فهي ناقصة عقل ودين، وخلقت من ضلع أعوج، وهي ما أن يترك لها المجال إلا وتنحرف وترتكب الموبقات. هل جاء الإسلام بمثل ذلك؟ هل يمكن لعقل أن يتقبل مثل هذا التفكير الوضيع، الذي يختزل المرأة ويجعلها جارية وخادمة مطيعة؟ صراخ الظلاميين مع كل خطوة تخطوها المرأة في مجتمعنا يؤكد: إما أنهم لا يحسنون التربية، لذلك هم يشكون في كل حراك نسائي، وإما أنهم ينظرون لها مثلما سبق، وفي كلتا الحالتين يُرفضون شعبيًّا ورسميًا، ولعل الظلاميين تلقوا صفعتين جديدتين أخيرًا، الأولى: أن مجلس الشورى أقر توصية الرياضة في مدارس البنات، رغم أنوفهم، ولم تُفلح بشوتهم في وقف ذلك القرار، والثانية: كان الأمر الكريم برفع سن ابتعاث وإيفاد الموظفين للدراسة إلى ٤٥ عامًا، فهذا الحراك كان من الممكن أن يمضي قدمًا من دون صراخ أو عويل أو طعن وتشكيك، فلا يوجد أي حراك رسمي يشرّع ما يوحي به الظلاميون، فالرياضة ستكون داخل المدارس، ولأوضحها في شكل أكبر، لا يوجد ذكور في تلك المدارس. أما الابتعاث الذي حاولوا -ويحاولون- إلصاق كل موبقات الأرض به، فهم ليسوا مضطرين إلى العمل به، إذا لم يكن مقنعًا لهم ولأسرهم. أما أن يتقدموا نيابة عن أطياف المجتمع.. فمن فوضهم أو طلب منهم أو من يمثلون أصلًا؟ والسؤال الأهم والأبرز: من أنتم...؟)[1].

(١) انظر المقال في جريدة الحياة العدد ١٢٩١٧ تاريخ ١٠/ ٤/ ٢٠١٤.

وعـن الدعـوة إلى فصـل الحياة عـن الشريعـة وأحكامهـا يقول أحدهم في مقال له بعنوان (المعلمات وتجربة تدريس البنين):

(أقر مجلس الشـورى السعودي أخيرًا توصيتين تتعلقان بالجانب التعليمي، الأولى بشـأن دراسة إضافة برامج اللياقة البدنية والصحية في مـدارس البنـات، بـما يتفق مـع الضوابـط الشرعية التـي صاحبها نقاش وجدل حام حولها في الأعوام الأخيرة، والأخرى إجراء دراسة تقويمية في تجربة إسناد طلاب الصفوف الأولية البنين إلى المعلمات في التعليم الأهلي.

القـرار كان خطوة إسـتراتيجية مهمـة وجريئـة في الوقت ذاته، مـن حيث تحسـين مسـتوى مخرجـات التعليـم وتطويرهـا في بلادنا، بـدءًا مـن المراحل التأسيسـية، على ضوء الإيجابيات التي تم تلمسـها مـن التجربة الميدانية، وقد قوبلت الخطوة برفض واسـتياء شـديدين مـن بعـض المتشـددين والمحتسـبين، وخُلِطـت الأوراق حـول هذه القضية من خلال زجها بقضية تطبيع الاختلاط بين الأبناء والبنات، وحصول مفاسـد شرعية من ذلـك، والتجاهل المتعمـد لما نص عليه تنظيـم وزارة التربية من اشـتراط الفصل التام بـين الذكور والإناث، وهنـا يجـب توضيح قضيـة مهمة، وهـي أن النقـاش والخلاف حول مثـل هـذه القضايـا الدنيوية والمسـتجدات الحديثة هـو خلاف يجب

أن يكـون خـارج النطاق الديني وبعيـدًا عن قضية الفتـوى والتحليل والتحريـم، اسـتنادًا إلى الحديـث النبـوي الشريف: «أنتـم أعلم بأمور دنياكـم»، فالقضايا التنظيمية لشـؤون المجتمـع التعليمية والاجتماعية ونحوهـا مسـتجدات دنيوية تحتـاج إلى نظم وتشريعـات مدنية تصب في مصلحـة الناس والمجتمع والدولة.... وهذا يقودنا إلى الإشـارة إلى قضيـة أخـرى مهمة، يجب علينـا مراعاتها وعدم إغفالها، وهي مسـألة التخصص، حتى نسـلم ونكون في منأى من عملية التداخل بين ما هو ديني، فيكون خاضعًا لسلطة ورأي الفقيه والعالم الشرعي، وبين ما هو دنيـوي بحاجة بالدرجة الأولى - على سـبيل المثال- إلى المتخصص في علم الاجتماع والتربية والنفس. فالخلط بين هذين الأمرين غالبًا ما يقع -وللأسـف- في تعاطينا مـع كثير من قضايانا الدنيويـة، بحيث تُقَحَم الفتـوى في الشـؤون الحياتية والتنظيميـة الخاضعة للمصلحـة العامة، التي لا علاقة لها في شكل مباشر بالجانب الشرعي تحليلًا أو تحريمًا)[1].

وتأمـل المقال التـالي وما يحمل في طياته مـن الكذب والحقد على المحتسبين والسخرية بهم والفجور في الخصومة، وهذا شأن المنافقين.

يقول المقال: (إن الذين يحللون ويحرمون ويصدرون فتاوى تحط من قدر المرأة وتجهض مكتسباتها، يجب أن يوضع حدّ لهم، فما من أحد

(١) انظر المقال في جريدة الحياة العدد (١٢٩٢٢) في ١٥/ ٤/ ٢٠١٤.

كلفهـم بذلك، أو طلـب منهم أن يكونوا أوصياء عـلى المرأة، والملك -حفظـه الله- قصر الفتوى على هيئة كبـار العلماء، وما أصدره الملك من قرارات حظيت بمباركتهم، فلم يتجاوز أولئك المحتسـبون؟ كما مُنع التجمهـر، ومنع التحريض، فمن يتجمهرون عند جهة حكومية إنـما يقومون بالتحريض على من فيها من مسـؤولين، وهذا يعني قمة التحـدى للأوامـر الملكيـة، وإن تغطـوا بالدفاع عن الديـن، فأولئك مسيسـون لا هـمَّ لهـم إلا فرض أجندتهـم التي صيغـت في الردهات السرّية للحزبيين والمتأخونين!

المحتسـبون يشـغلون الرأي العام بتلك الآراء والمواقف المريبة، والمشـككة في حـق المـرأة في اختيارها الحيـاة الكريمة التـي ترتضيها وتسـتحقها، ويعملون على إرهابها دينيًّا، وهذا شأن بعض المتشددين في كل العقود، حالهم كحال من أراق دم الحسين وسأل عن حكم دم البعوض، يغمضون أعينهم عن الفساد وإهدار أموال الدولة، والغش في مواصفات بناء المشـاريع، تزوير صكـوك الأراضي من قبل بعض كتاب العدل، وتقاضي الرشى من بعض القضاة، والتآمر على الدولة، وممارسة الإرهاب من المنتمين لقاعدة المقبور ابن لادن، ونهب أموال الصدقـات لصرفهاعـلى الإرهابيـين، وغلاء الأسـعار الذي يعصف بمحدودي الدخل، والتسـتر على مخالفي الإقامة، وتزوير الشهادات العلمية الذي تلبس فيه بعضهم، وغير ذلك من الأمور التي تهدد أمن

الوطن واستقراره، وتصب في خانة الاحتساب، لكنهم لا يجدون ما يمكن أن يزعزع الدين ويهدد أركانه سوى رياضة المرأة وابتعاثها)[1].

وقد اشترك في تشويه المحتسبين ومؤسسات الاحتساب والسخرية منهم ثلاث جهات: (الروايات والمسلسلات، وغالب الصحف المحلية، ومواقع الإنترنت). ومن أشهر المواقع التي تشن هجومًا وسخرية بالمحتسبين ومؤسساتهم موقع (الشبكة الليبرالية السعودية)، وموقع (طومار) وبالرجوع إلى هذين الموقعين نرى التشويه والألفاظ البذيئة كوصفهم للمحتسبين (بالرجعيين، أشباه الحيوانات، وحثالة البشر، والفئة الشيطانية، الوحوش البشرية، شلة إبليس، المنحرفون)، كما نرى في هذه المواقع التأليب على المحتسبين والمطالبة بحل الهيئة وتسريح موظفيها وتحريض الدولة بأن تضع حدًّا لهم ويقولون: ما دامت الهيئة موجودة فليس للإنسان كرامة. الهيئة تمارس الإرهاب المنظم.

• **الصفة السادسة: تولي الكفار ومظاهرتهم وطاعتهم والتماس رضاهم بسخط الله ﷻ.**

قال الله ﷻ: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

(١) مقال في جريدة الرياض بعنوان (الاحتساب فوضى انتقائية) عدد (١٦٧٢٩).

وقال ﷻ عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

والأمثلة على هذه الموالاة والمحبة من منافقي زماننا للكفار لم تعد خافية على أحد، فألسنتهم وأقلامهم ومواقفهم تطفح بذلك دون حياء أو خجل.

فمن ذلك:

- تعاون هؤلاء المنافقين الجدد مع أعداء الأمة من الدول الكافرة، وما علينا إلا الرجوع إلى بعض التقارير التابعة لبعض مراكز البحوث الغربية، التي تنادي بدعم هذه الفئة واستغلال أنشطتها ومنابرها لنشر الديمقراطية الغربية[1].

- ومن ذلك محاولتهم تعطيل عقيدة الولاء للمؤمنين والبراءة من الكفر وأهله، وإلغاء الحصر الذي جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، بمصطلح (التعايش السلمي)، وهم لم يتعايشوا مع المسلمين سلميًّا إلى اليوم، ولن يتعايشوا معهم إلى آخر الزمان، ولكنهم أرادوا ذبح ضحاياهم وهم مستسلمون، ثم قذفوا

(١) انظر مثلاً: تقرير لمركز البحوث الأمريكي (راند) بعنوان: (الإسلام الديمقراطي المدني: الشركاء والمصادر والإستراتيجيات).

obeikandi.com

بمصطلح (الآخر) بديلًا للمسميات الشرعية التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي الكافر والمنافق والمرتد والمبتدع، وظن كثير من الناس أن تلك المصطلحات المحدثة مجرد استعمالات لغوية مولدة، اقتضاها تطور اللغة الفكرية والصحفية ليس غير.

ولما رأى المنافقون أن هذه المصطلحات قد رسخت في أذهان كثيرمن الناس، وكثر استعمالها، وقل استنكارها واستغرابها بدءوا بالإلحاح على مضامينها، واستخراج معانيها، ودعوة الناس إلى لوازمها، فانبرى بعضهم إلى نفي الحقيقة المطلقة، ولازم ذلك نفي اليقين بالإسلام؛ لأنه في واقع الأمر حقيقة مطلقة، وآخرون منهم زعموا أن جميع الطرق توصل إلى الله تعالى، وأن الأديان يترك الفصل فيها إلى عدل الله يوم القيامة، وأنه لا يجوز الحكم على الكفار بالنار، بل لا يجوز إطلاق الكفر على اليهود والنصارى، ولا على من لم يؤمن بالإسلام إذا لم يحاربه، وزعم بعضهم أن من التشويه والتحريف لكلمة (لا إله إلا الله) القول باقتضائها الكفر بالطاغوت، ونفي سائر الديانات والتأويلات، أو أن معناها: لا معبود بحق إلا الله تعالى.

وفي هذه الأقوال الفاسدة ومثيلاتها إبطال لدين الإسلام، وتصحيح لكفر الكفار، وإفراغ لكلمة التوحيد من معانيها ولوازمها، ودعوة إلى اعتناق الإلحاد العلماني الغربي.

– ومن ذلك مباركة منافقي زماننا لغزو المحتلين لبلاد المسلمين وتأييدهم لذلك، فها هو أحدهم يبرر غزو أمريكا للعراق ويبين شرعيته، وأنه جاء للتحرير ورفع الظلم، وعليه فلا يجوز جهاد الأمريكان ولا الدفاع عن العراق[١]. بل طالب بالدعاء لهم بأن يمنح الأمريكان أطول مدة للبقاء في العراق، وأن يرزقهم الصبر والتحمل على ما يلاقونه من المتاعب والمشاق[٢].

وها هو أحد رؤوس النفاق الليبرالي يعتب على أمريكا تقصيرها في تدخلها في تغريب مجتمعات المسلمين وإعلامهم، ويسدي لها النصائح في ذلك، حيث يقول:(لماذا لم تتقدم أمريكا بخطواتها الإعلامية المطلوبة والمفروضة، التي كان يمكن لها أن تحضر التربة العربية لزراعة ما تحاول أمريكا أن تزرعه الآن من خلال حملتها العسكرية على العراق... ولماذا لم تحفل ولم تستمع الإدارة الأمريكية لدعوة بعض المثقفين العرب الشجعان في ضرورة تدخلها في إعلام الدول العربية الرسمي، ومن هؤلاء المثقفين المفكر العفيف الأخضر)[٣].

ويقول فض الله فاه: (الليبراليون العرب هي الفئة الوحيدة في العالم العربي التي تشجع وتدعم وتبارك ما تم في العراق)[٤]، ويقول

(١) صحيفة عكاظ تاريخ ٢٣/ ١/ ١٤٢٤.
(٢) صحيفة عكاظ تاريخ ١٩/ ٥/ ١٤٢٤.
(٣) زوايا حرجة. شاكر النابلسي ص١٣٦.
(٤) (بالخط العريض) شاكر النابلسي ص٨١.

أيضًا: (الليبراليون هم فدائيو الحرية، فهم الذين أيدوا غزو العراق منذ اللحظة الأولى)[١].

وهم يرون التطبيع مع اليهود في فلسطين وعدم التفكير في المقاومة والجهاد واحترام اتفاقيات السلام، يقول شاكر النابلسي: (إن اتفاقيات السلام كاتفاقية كامب ديفد ١٩٧٩ واتفاقية اوسلو ١٩٩٣ واتفاقية وادي عربة ١٩٩٤ يجب أن تصبح اتفاقيات شعبية بين الشعوب، بدلًا من أن تكون اتفاقيات دول فقط)[٢]، ويقول أيضًا: (إن إظهار المجتمع المدني العربي وخاصة من جانب الفنانين المثقفين والصحافين مشاعر ودية، إزاء الإسرائيليين يكسب المفاوض العربي ثقة الرأي العام الإسرائيلي)[٣].

وعندما أصاب أمريكا الانهيار الاقتصادي الكبير، وفرح المسلمون بذلك، انبرى أحد المغرمين من القوم بحب أمريكا يتباكى على ما أصابها، ويدافع عنها، ويرى أن وجودها ضمانة حقيقة للأمن العالمي.

حيث يقول: (صحيح أن تراجع الاقتصاد الأمريكي قد يؤدي إلى ضمور النفوذ الأمريكي، وعدم قدرته على الفعل الحاسم خارج حدود أمريكا. قد يحدث هذا أو شيء من هذا القبيل، فيما لو حدث

(١) سجون بلا قضبان ص٣٢.
(٢) الليبراليون الجدد ص٢٥.
(٣) بالخط العريض ص٦١.

كساد حاد لكن هذا ليس في صالح أي من دول العالم التي تريد أن تعيش في سلام. فأمريكا برغم كل شيء وبرغم كل الأخطاء، هي في النهاية قوة إيجابية، وضمانة حقيقية للأمن العالمي، وبدونها قد ينهار نظام الأمن في العالم، فلا تستطيع الدول -باستثناء دولتين أو ثلاث- أن تضمن حدودها، ولا أن تحمي نفسها مما يشبه شريعة الغاب.

ما لا يريد أن يعترف به التقليديون والغوغائيون أن أمريكا هي أقل الإمبراطوريات عبر التاريخ إضرارًا بالآخرين، وأن أخطاءها -برغم كل ما يقال- أقل بكثير من أخطاء الآخرين. بل إن العائد الإيجابي الأممي للقوة الأمريكية، يفوق كل ما قدمته الإمبراطوريات عبر التاريخ البشري كله، وهي حقائق يعرفها الجميع، ومع هذا يحنق عليها الجميع؛ لأن ضريبة النجاح والتفوق تفرض مثل هذا السلوك، وخاصة من قبل أولئك الفاشلين، الذين لا يملكون إلا جذوة الحسد السلبي، الذي نراه منهم في عبارات الشماتة الجوفاء)[1].

وها هو أحد الكتاب في بلاد الحرمين يسخر من المحتسبين الذين أنكروا فتح باب الابتعاث للمراهقين والمراهقات وتقرير الرياضة البدنية في مدارس البنات، ويبرر سخريته بأن هذا من شأنه أن يجعلنا سخرية للغرب المتحضر، حيث يقول: (لو أتيت باسترالي أو كندي أو

(١) انظر جريدة الرياض العدد (١٤٧٣١) تاريخ ٢٣/ ١٠/ ١٤٢٩.

بريطاني، وقلت له: إنا على خلاف في موضوع رياضة البنات لأمطرك بالسخرية والاستغراب)[1].

ومما يدخل تحت موالاة الكفار وطاعتهم ما يقابل ذلك من عداء وبغض للمصلحين من المسلمين والشماتة بهم واستعداء الحكومات عليهم والفرح بما يصيبهم من الأذى، والحزن والغم عندما تحل بالمسلمين نعمة وخير ونصر. وهذا مصداق قول الله ﷻ في إخوانهم المنافقين السابقين: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة:٥٠].

قال الشوكاني رحمه الله: (وهذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين، وسوء أفعالهم، والإخبار بعظيم عداوتهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، فإن المساءة بالحسنة، والفرح بالمصيبة، من أعظم ما يدل على أنهم في العداوة قد بلغوا الغاية)[2].

وها هم منافقو زماننا يستعدون الحكام على المصلحين، حيث يقول أحدهم عن المؤمنين المحتسبين: (لقد أفسد هؤلاء المحتشدون حياة الناس، وسمموها بفكرهم السافر. في هاشتاق «زيارة المشايخ لبيان خطر الابتعاث»، الذي وضعه المغردون، كتب أحدهم هذه

(١) انظر جريدة عكاظ عدد (٤٦٨٠).
(٢) فتح القدير ٢/ ٤٢٠.

العبارة قائلًا: «إذا رأيتموهم يقادون إلى السجن ويجلدون، فاعلموا أن وطننا قام من كبوة الصحوة، وبدأ في تصحيح أموره»[1].

وها هي امرأة منهم تصف المحتسبين بالإرهاب، وتدعو إلى الضرب عليهم بيد من حديد، فتقول:

«إن الواجب الوطني والأمني يحتم إعادة توجيه البوصلة، فمسيرة الإصلاح مسيرة لا تتم بالنوايا الحسنة، إنها مسيرة هدم وبناء فى آن واحد، مسيرة تنهض بجهد تنظيم إداري، وبجرأة تغيير بنيوية ذهنية وتشريعية، وكما هي مسيرة تطور فهي مسيرة أمن ارتباطية، بمعنى لا يمكن أن توفر الأمن في بيئة حاضنة للتطرف والإرهاب، الإصلاح يتطلب العزم الجازم على اقتلاع كل أثر للمتطرفين فكريًّا ابتداءً وأمنيًّا ارتباطًا، فخطر الإرهابي يعتمل على البدايات الذهنية الباطلة، تلك الشعلة المتقدة لفرز مزيد من الإرهابيين المجرمين.

ختامًا: لقد أُسقط في يد المتطرفين، وأصبحت اعتراضاتهم مثار سخرية العالم أجمع، لكن الحقيقة التي علينا ألا نغفل عنها ثانية واحدة هي: (أن الرضوخ للمتطرفين بمثابة تسليم الوطن للإرهابيين) حمى الله وطننا بعنايته وحفظ مليكنا الصالح بحفظه وأدام عزه، ليقودنا بعزمه الصادق لعز بلادنا وإنسانه[2].

(١) انظر المقال في جريدة الحياة العدد (١٢٩١٩) تاريخ ١٢/ ٤/ ٢٠١٤.
(٢) انظر المقال في جريدة الرياض العدد (١٦٧٣٣) وتاريخ ١٧/ ٤/ ٢٠١٤.

• الصفة السابعة: التخذيل والتثبيط عن جهاد الغزاة والمحتلين والسخرية من المجاهدين

يقول الله ﷻ عن المنافقين الأولين: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨].

وقال ﷻ عنهم: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

وقال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

وقال ﷻ عنهم: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

هذا ما وصفه الله ﷻ للمنافقين بنكوسهم عن الجهاد في سبيله، وتخذيل الناس، وتثبيطهم عنه، بل والسخرية من المجاهدين.

وما نسمعه اليوم من منافقي زماننا هو عين ما يقوله إخوانهم من المنافقين السابقين، فها هو أحدهم يقول:

(التخلي عن خيار المقاومة نهائيًّا، والخروج من دوامة الحروب والقضية الفلسطينية، والجنوح إلى السلام، وقبول الأمر الواقع، وإغلاق كل ملفات القتال، والقبول بالسلام دون شروط، بل بما يراه العدو مناسبًا بحجة: (أن المهزوم يقبل ولا يفرض)[1]، بل ويوجهون أشد أنواع النقد لكل عمل من أعمال المقاومة والجهاد تقوم به تلك الشعوب، وكذلك يدعون إلى إلغاء تدريس أحكام الجهاد بزعم أنه هو (الأساس الذي يستغله المفجرون والمخربون، ليجندوا أبناءنا الآن فيما يسمونه جهادًا))[2].

وقد مر بنا في الصفة السابقة عند ذكر تولي المنافقين للكافرين ومحبتهم من دون المؤمنين ما قاله بعض رموز المنافقين الليبراليون (شاكر النابلسي وغيره) من الدعوة إلى ترك المقاومة المسلحة للمحتلين من يهود وغيرهم واستبدالها بالسلام والتطبيع والرضى بالأمر الواقع، وهذا مقال ينضح بما فيه كتبه أحدهم في صحيفة محلية بروح منهزمة يدعو فيه إلى ترك مقاومة الغزاة والتيئيس من هزيمتهم. يقول -هداه الله-:

(يقولون: الشعوب لا تقتنع ولا تَعتبر ولا تتغير، حتى تُجرب وتعاني وتكتشف، لتكون النتائج مبنية على تجربة حقيقية وليس مجرد

(١) انظر مقال (الحل الذي لا غيره) عكاظ عدد (١٨٦٣).
(٢) انظر مقالة (عذرًا يا شيخ صالح) جريدة الوطن عدد (٢٨٥).

obeikandl.com

نظريـات ورغبات تفتقـد إلى الواقعية والموضوعيـة.. الغرب المتفوق لم يصـل إلى تفوقـه الحضـاري إلا مـن خـلال بـرك من دمـاء على مر قرون؛ عرف من خلالها أن السـلام وليس الحرب، والتعايش وليس الاقتتـال، هـو شرط بقـاء الدول ونموهـا وتحضرها في هـذا العصر. حركـة طالبـان في فترة مـا حَكَمت أفغانسـتان، وحَصنـت الحركيين المتأسـلمين القادمـين إليها من كل بقـاع العالم وحمتهـم، وظن بعض هـؤلاء، وتحديدًا (الجهاديين منهم، أن التسـلل إلى أمريكا، وغزوها، ونسف معالمها، سيُقيم دولة الإسلام القوية المتطورة والمتحضرة التي إليهـا يطمحون، وفعـلًا نفذوا ما يعتقـدون في بدايـات العقد الأول مـن القرن الواحـد والعشرين، فكانت هـذه الغزوة وبـالًا ليس على الجهاديـين فحسـب، وإنما على بقـاء دولة طالبـان التي كانـت حينها فتية.. سـقطت دولة طالبان، فعادت وعاد مجاهدوها إلى حيث بدؤوا من جديد، إلى الكهوف، وإلى الدم، والعمليات الانتحارية، وتفخيخ السيارات، يريدون أن يُعيدوا مجدًا لهم قام لأسباب محض استخباراتية، وصراعات بين القوى العالمية، وسقط -أيضًا- لأسباب استخباراتية عندما اسـتنفد أغراضه؛ غير أن الإنسان الأفغاني الذي عرف ويلات الحروب الأهلية، ودمويتها، ومعنى غياب الاسـتقرار، اتجه إلى حيث الحل المدني وصناديق الانتخابات، وليس إلى حيث شعارات مجاهدي طالبان الكهنوتية؛ فقد شـارك نحو ٧ ملايين أفغاني بمحض إرادتهم

في انتخابات (الدولة الأفغانية المدنية) الأخيرة برغم تهديدات طالبان بأنها ستنسف هذه الانتخابات، لأنها غير إسلامية، لكن الأغلبية الساحقة من الأفغانيين لم تهتم بطالبان وتهديداتها وشعاراتها، بعد أن عايشوا هذه الشعارات والحلول المستنسخة من كتب التاريخ، ولم يجدوا فيها غير الويلات والدماء واللا استقرار، نجاح الانتخابات الأفغانية الأخيرة، وهذا الكم الكبير من الأفغان الذين شاركوا فيها، يعني أن الحل الطالباني فشل عمليًّا على أرض الواقع فشلًا ذريعًا، وانصرف الناس عنه. وفي سوريا الثورة قامت حركات جهادية تُقاتل بنفس المنطق والشعارات والأهداف التي كانت طالبان تُقاتل من أجلها، فقد كانت (داعش وجبهة النصرة) تمثلان التجربة الطالبانية بحذافيرها لكن بنسخة عربية، ومثلما استغلت أجهزة الاستخبارات العالمية طالبان لتُنفذ أهدافًا معينة تصب في مصالحها، استغلت -أيضًا- أجهزة الاستخبارات الإقليمية والعالمية الحركتين استغلالا استخباراتيًّا محترفًا، وكما أدرك الأفغان طوال حكم طالبان، ومن ثم سقوطها، ويلات هؤلاء المتأسلمين، ووحشيتهم، وكراهيتهم للسلام، ها هم السوريون، ومعهم العرب والمسلمون في كل بقاع الأرض، يُتابعون أولًا بأول، وبالصوت والصورة، ومن خلال الفضائيات، ومواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت، وحشية

ودموية وقسوة وفظاعة هذه الحركات المتأسلمة؛ ولعل ردة الفعل الشعبية الواسعة المتذمرة إلى درجة القرف من هذه المشاهد البشعة، ستجعل الإنسان العربي يصل سريعًا إلى ما وصل إليه الإنسان الأفغاني حتمًا)[1].

ومن مخازي منافقي زماننا فرحهم بما يصيب المسلمين من مصائب ونكبات. ولما احتلت الدول الكافرة الباغية بعض بلدان المسلمين فرح المنافقون وشمتوا ودبجوا المقالات دفاعًا عن الغازي المحتل الغاشم الذي جاء لينشر السلام!!! زعموا.

هذه أبرز الصفات النفاقية التي شابه فيها منافقو زماننا -بل فاقوا فيها- سلفهم المنافقين الأولين، وهي على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، وإلا فهنالك صفات أخرى كثيرة تشابه فيها المعاصرون مع الأولين، أذكر بعضها فيما يلي على وجه الاختصار والسرعة.

أ- قلة ذكر الله ﷻ: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، والمتتبع لمقالات المنافقين الجدد ومواقعهم وكتبهم لا يكاد يجد فيها ذكرًا لله ﷻ أو أحد أسمائه الحسنى، وتكاد تخلو من آية من كتاب الله أو حديثًا من أحاديث الرسول ﷺ. بينما نجد أسماء فلاسفة الغرب

(١) انظر مقال (تعري الجهاد المزعوم) جريدة الجزيرة عدد (١٥١٩٥) تاريخ ٦/ ٥/ ٢٠١٤.

كهيجل وانشتاين ولوثر يتكرر كثيرًا في كتبهم، ويطعمون ذلك ببعض فلاسفة العرب المنحرفين كابن رشد، وابن سينا، والراوندي.

ب- ادعاؤعم الإصلاح في مشاريعهم الإفسادية، ولا سيما مما يدعون إليه من تغريب المجتمع، وجعله تابعًا لكفار الغرب في قيمه وسلوكه، وهذا واضح جدًّا في كتاباتهم، بل صرح بعضهم بذلك، حيث جعل قدوته وقبلته الغرب، فدعى بكل صفاقة إلى التغريب، هائمًا في حبهم، متهالكًا في دعوته وإفساده.

قال الله ﷻ: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

جـ- ومن ذلك غيظهم الشديد من المحاضن التربوية في حلقات تحفيظ القرآن والمراكز الصيفية والأنشطة اللاصفية، وهجومهم عليها واتهام القائمين عليها بالفساد والإفساد. فهذا أحدهم يكتب مقالات عدة في إحدى الصحف تحت عنوان (ثقافة الموت في بلادنا)[1] ومقال آخر بعنوان: (دعاة لا معلمون)[2]، انتقد فيهما الكاتب الأنشطة اللاصفية في المدارس الحكومية، واعتبرها أحد منابع الإرهاب.

(١) صحيفة الوطن العدد (١٣٤٣) تاريخ ٨/ ٤/ ١٤٢٥هـ.
(٢) صحيفة الوطن العدد (٩٢١) تاريخ ٦/ ٢/ ١٤٢٤هـ.

وآخر يذهب إلى أن المراكز الصيفية مرتع للفكر الضال والمنحرف[1]. وهم بذلك يدعون الإصلاح، ويسمون تيارهم الليبرالي النفاقي (التيار الإصلاحي)، وصدق الله العظيم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[البقرة: ١١ - ١٢].

د- مرض الشهوة والشبهة في قلوبهم: وهذا واضح في تهالكهم في دعوة المرأة إلى السفور والاختلاط والتمرد على الرجل (أبًا أو أخًا أو زوجًا) بشبهات يلقونها، وهذه الصفة تكاد تكون مشتركة بين المنافقين الليبراليين الجدد، فلا يكاد يخلو مقال لهم عن المرأة، وكأن ليس لديهم من مشاريع إلا المشروع الأنثوي. ولا يخفى ما في هذا من إشاعة للفاحشة في المؤمنين.

ونظرًا للهجوم الشديد على المرأة المسلمة والسعي لتغريبها ونشر الفاحشة بدعوتها إلى السفور والاختلاط والتمرد على الرجل (أبًا أو أخًا أو زوجًا). انقل هنا بعض كتابات القوم التي تنم عمَّا في قلوبهم من الحرج والكره لما أنزل الله ﷻ، واعتراضهم على ذلك بشبهات وشهوات.

(١) انظر المقال في جريدة الجزيرة العدد (١٣٠٥٩) تاريخ ٢٦/ ٦/ ١٤٢٩.

- فهذا أحدهم يرى نزول المرأة في الفنادق والشقق المفروشة لوحدها مظهرًا من مظاهر الإصلاح[١].
- وآخر يرى أن إنشاء جامعة مختلطة من الجنسين مشروع إصلاحي يستحق الإشادة[٢].
- وهذه امرأة من القوم تعد دخول المرأة إلى المسرح السعودي خطوة قوية باتجاه مشروع الإصلاح[٣].
- وأخرى تقول: إن القول بأن عالم المرأة هو المنزل والزوج والأولاد معتقدات تقليدية، تعارض التنمية والتحديث[٤].
- وأخرى تقول: (نحن لا نريد متعلمات يجلسن في بيوتهم في انتظار ابن الحلال، الذي قد يأتي وقد لا يأتي)[٥].
- وأخرى تطالب بتطبيق الاتفاقيات الدولية التي وقعتها الحكومة، ومنها اتفاقية القضاء على جميع أشكال التميز ضد المرأة. وتعدها مرجعًا لحماية المرأة والمطالبة بحقوقها[٦]. ولا يخفى على من يقرأ بنود هذه الاتفاقية ما فيها من إلغاء لكثير من التشريعات الإسلامية.

---

(١) انظر المقال في صحيفة عكاظ العدد (٢٤١٤) تاريخ ١٧/ ١/ ١٤٢٩هـ.
(٢) صحيفة الوطن العدد (٢٨١٩) تاريخ ١٤/ ٦/ ١٤٢٩هـ.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) وقع العولمة في مجتمعات الخليج ص ١٢٥.
(٥) صحيفة البلاد عدد (١٢٦٥).
(٦) صحيفة الرياض العدد (١٣٧٢٠).

obeikandl.com

النفاق الأصغر خلل في حياتنا

وبعد أن تعرفنا على معنى النفاق وأنواعه وأبرز صفات أهله، فإنه ينبغي لمن عافاه الله ﷻ من النفاق الأكبر، الذي هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر أن يفتش في نفسه، ويسعى لتخليصها من النفاق الأصغر وأعماله وشعبه. حيث إن بعض هذه الصفات التي سبق الإشارة إليها تنتشر في قلوب كثير منا وأخلاقهم ومعاملاتهم، ونحن نشعر أو لا نشعر، ولكن ما بين مكثر ومقل، وإن أخطر ما يكون من التلبس بهذه الصفات أو بعضها أوالتهاون في علاجها والتخلص منها، هو أن تتراكم على القلب، ويخشى أن تؤول بصاحبها إلى النفاق الأكبر، والعياذ بالله تعالى. وكم من خاتمة سوء كان سببها دسائس خفية في القلوب ظهرت عند هول المطلع وخروج الروح.

وأخص بهذه الوصايا والتنبيهات نفسي الأمارة وإخواني الدعاة والمجاهدين، وذلك لظهور بعضها في حياتنا، وهذا خلل يجب أن يتدارك، وداء يجب أن يعالج، قبل أن يستفحل ويصعب علاجه.

وقبل أن أذكر بعض هذ الصفات والأخلاق الذميمة أُذكر بالحديث الصحيح الذي سبق ذكره عند الحديث عن أنواع النفاق، والذي ذكر فيه الرسول ﷺ أصول أعمال المنافقين وخصالهم. فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «**أربع من كن فيه كان**

منافقًا خالصًا. ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1]، ولا يعني هذا الحديث أن هذه الصفات الأربع هي صفات المنافقين العملية فحسب، بل إن صفات المنافقين كثيرة. ووجه الاقتصار على هذه الصفات لأنها -والله أعلم- منبهة على ما عداها إذ أصل الديانة في ثلاث: القول والفعل والنية، فنبه على فساد القول بالكذب، وعلى فساد الفعل بالخيانة، وعلى فساد النية بالخلف[2]. يقول الشيخ السعدي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث:

النفاق أساس الشر. وهو أن يظهر الخير، ويبطن الشر. هذا الحدُّ يدخل فيه النفاق الأكبر الاعتقادي، الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر. وهذا النوع مُخرج من الدين بالكلية، وصاحبه في الدَّرْك الأسفل من النار. وقد وصف الله هؤلاء المنافقين بصفات الشر كلها: من الكفر، وعدم الإيمان، والاستهزاء بالدين وأهله، والسخرية منهم، والميل بالكلية إلى أعداء الدين؛ لمشاركتهم لهم في عداوة دين الإسلام. وهم موجودون في كل زمان، ولا سيما في هذا الزمان الذي طغت فيه المادية والإلحاد والإباحية.

---

(١) البخاري (٦٠٩٤)، مسلم (٢٦٠٧).
(٢) انظر فتح الباري ١/ ٩٠.

والمقصود هنا: القسم الثاني من النفاق، الذي ذكر في هذا الحديث، فهذا النفاق العملي -وإن كان لا يخرج من الدين بالكلية- فإنه دهليز الكفر، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال الأربع فقد اجتمع فيه الشر، وخلصت فيه نعوت المنافقين، فإن الصدق، والقيام بالأمانات، والوفاء بالعهود، والورع عن حقوق الخلق هي جماع الخير، ومن أخص أوصاف المؤمنين. فمن فقد واحدةً منها فقد هدم فرضًا من فروض الإسلام والإيمان فكيف بجميعها...

واعلم أن من أصول أهل السنة والجماعة: أنه قد يجتمع في العبد خصال خير وخصال شر، وخصال إيمان وخصال كفر أو نفاق. ويستحق من الثواب والعقاب بحسب ما قام به من موجبات ذلك، وقد دلّ على هذا الأصل نصوص كثيرة من الكتاب والسنة. فيجب العمل بكل النصوص، وتصديقها كلها. وعلينا أن نتبرأ من مذهب الخوارج الذين يدفعون ما جاءت به النصوص: من بقاء الإيمان وبقاء الدين، ولو فعل الإنسان من المعاصي ما فعل، إذا لم يفعل شيئًا من المنكرات التي تخرج صاحبها من الإيمان. فالخوارج يدفعون ذلك كله، ويرون من فعل شيئًا من الكبائر ومن خصال الكفر أو خصال النفاق خارجًا من الدين، مخلدًا في النار، وهذا مذهب باطل بالكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة)[1].

(١) بهجة قلوب الأبرار ١/ ص٢٣.

openkanal.com

وبعد هذه المقدمة عن النفاق الأصغر، وذكر أهم خصاله المذكورة في الحديث، نأتي لذكر شيء من التفصيل في مزيد من صور هذا النفاق، التي تنتشر في حياتنا اليوم، ويتساهل بها كثير من الناس على خطورتها، وسنلاحظ في أكثرها أنها تعود إلى الصفة الكبرى والخصلة العظمى من خصال المنافقين، ألا وهي «الكذب». ومن أبرز هذه الصفات التي تشكل خللًا في حياتنا ما يلي:

• **الصفة الأولى**: الكذب في الحديث وإخلاف الوعد والعهد

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]، وجاء ذكر هذه الخصلة، في الحديث السابق بما يغني عن إعادته هنا، والمقصود التنبيه على ذم هذه الخصلة، وأنها أساس النفاق الاعتقادي والعملي، ومع ذلك نراها منتشرة في حياتنا ما بين مقل ومكثر وما بين واقع بسببها في كبيرة وواقع في صغيره، وإخلاف الوعد والعهد من الكذب الشنيع، ومع ذلك فما أكثر من يتساهل بالمواعيد مع إخوانه، ولا يكترث في الوفاء بها، أو يفي بها بعد فوات الوقت في الموعد، وكم ممن لا يفي بعهده، ولا يؤدي الأمانات إلى أهلها.

وما أكثر من يكذب اليوم على أولاده أو طلابه، أو لا يفي لهم بوعوده لهم. وما أكثر من لا يفي بما يبرمه من عقود مع إخوانه المسلمين، حتى امتلأت المحاكم الشرعية من جراء ذلك مما يعرفه القضاة والمحامون.

وإخلاف الوعد المذموم هو من يبيت سلفًا وينوي إخلاف وعده وعهده، أما من ينوي الوفاء بالوعد لكنه لم يتمكن من ذلك لعارض من نسيان أو عجز فلا لوم عليه إن شاء الله تعالى. وهذا ينبهنا على أن لا نعطي وعدًا أوعهدًا إلا ويغلب على ظننا الوفاء به. أما من لمس من نفسه العجز ووجود العوائق التي تعترض وفاءه بوعده أو عهده فيجب عليه ابتداءً أن لا يحمل نفسه ما لم تحتمل، والسلامة والعافية في الدين لا يعدلها شيء.

• **الصفة الثانية**: الفجور واللدد في الخصومة والفحش والبذاء

وقد ذكرت هذه الصفة في (خصال المنافق) في الحديث السابق. والفحش والبذاءة ذكرت في قوله ﷺ: «**إن الشح والفحش والبذاء من النفاق**»[1].

والفجور في الخصومة أن يخاصم المخاصم بالباطل، وأن يتجاوز الحد في خصومته بما يظهر عليه من الظلم والعدوان في خصومته

(١) البيهقي في الآداب ١/ ١٨٤ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٦٣٠).

سواء في لسانه أو يده، ومن ذلك الفحش في الكلام من السب واللعن وبذيء الكلام ورديئه. وما أكثر من تظهر عليه هذه الصفات اليوم عند الخصومات، وقد يعدها بعضهم من الشجاعة والقوة وعزة النفس، وما درى أنها من صفات المنافقين.

- **الصفة الثالثة**: الاهتمام بجمال المظهر والحديث على حساب المخبر والجوهر وجمال السريرة والعمل[1].

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وإن إهمال السرائر وعدم العناية بها وتوجيه الاهتمام والعناية بجمال المظهر أو من قول وصورة ودنيا زائلة إنما هو علامة على مرض في القلب ونفاق عملي، قد يؤول بصاحبه إلى النفاق الأكبر. وإن الناظر في حياتنا اليوم وما يسيطر عليها من الاهتمامات ليرى أمرًا مؤسفًا ينذر بالخطر. يصور هذه الحالة الدكتور: عبدالكريم بكار فيقول: (أنزل الله ﷻ في المنافقين سورة سميت باسمهم، تفضح بعض مواقفهم، وتخبر عن بعض صفاتهم، وكان من جملة ما نعتهم الله تعالى به قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾. فقد وصفهم الله تعالى بأن الناظر إليهم يعجب بجمال أجسامهم، ومن يسمعهم يؤخذ بفصاحة ألسنتهم، لكنهم كالهياكل الفارغة: أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام.

(١) انظر كتاب (يوم تبلى السرائر) للمؤلف وهو من منشورات العبيكان.

وتطرح هذه الآية الكريمة مسألة خطيرة في حياة الإنسانية بعامة وحياة المسلمين بخاصة، هي قضية العلاقة بين الشكل والمضمون، أو الجوهر والمظهر.

ونعني بالجوهر ابتداءً: مجموع الخصائص الخُلُقِية والنفسية. والصور الذهنية، والخبرات والموازنات العميقة للفرد.

أما المظهر: فإنه مجموع ما يحمله الفرد من الصفات الجسمية، وما يمتلكه من الأشياء، وما يتحمله من وظائف، مما لا يعد على صلة مباشرة بكينونته الذاتية.

في البداية ليس الجوهر والمظهر شيئين منفصلين انفصالًا تامًّا، بل بينهما علاقة تأثر وتأثير وأخذ وعطاء.

وإذا كان بين الظاهر والباطن مثل هذا التجاذب والتلازم، فإن من البدهي ألا يزهِّد الإسلام الناس في الشكل؛ فالصلاة موقف روحي بحت، ومع ذلك حرص النبي ﷺ على انتظام الصفوف فيها، والأمر قريب من ذلك في صفوف القتال، وحث الإسلام على نظافة المظهر...

إذًا ما هي المشكلة؟

تكمن المشكلة في اختلال التوازن بين الجوهر والمظهر، أو بين المضمون والشكل؛ فالبشر متفقون على أن اللباب هو الأصل، وأنه

ينبغي أن يُعطى من الاهتمام والعناية والبلورة القسط الأكبر، لأن كل الإنجازات الحقيقية التي تتم على السطح نابعة أساسًا من إنجازات تمت على مستوى الكينونة والجوهر.

... وللمجتمع وما يقرمن أعراف سلطانٌ كبير على الناس، ولما كان الحكم الاجتماعي منصبًّا على الشكل كان الانحدار نحو الاهتمام بالشكل هو الأمر الطبيعي المتبادر إليه، أما العناية بالجوهر فيمكن أن تنمو عن طريق التربية الخاصة في الأسرة أو المدرسة، لكن ذلك سيظل ضعيف التأثير ما لم يكن المجتمع كله خاضعًا لمبادئ عليا خارجة عن إنتاجه، ولن يكون مصدر تلك المبادئ حينئذ الأرض، وإنما السماء.

.... وحينما يضعف الوازع الديني لدى المسلم، فإن الميزان يميل مباشرة لصالح المظهر. وبما أننا نعيش في عصر نتأثر فيه أكثر مما نؤثر، فقد أضيف إلى ضعف الوازع الديني عند أكثر الناس الوقوع تحت تأثير الفلسفة الغربية في جوانب الحياة المختلفة، تلك الفلسفة التي شكَّلت من الإنتاج غير المحدود والحرية غير المحدودة والسعادة غير المتناهية دينًا جديدًا اسمه التقدم! واقتضى ذلك توجهًا كليًّا نحو الطبيعة لاستثمار كل شيء فيها! ثم استهلاكه بصورة جشعة لم يسبق لها مثيل.

... والناظر في سيرة النبي ﷺ والحياة العامة لصحابته ﷺ يجد أن السيطرة كانت للكينونة الداخلية، وليس لما يمتلكه الناس من أشياء؛ لأن المحور الأساسي للحياة الاجتماعية كان الإنسان، وليس الأشياء؛ أما الآن فقد صارت (الملكية) هي المحور، ويتجلى ذلك واضحًا في أمور عديدة منها:

١. تناقصت الألفاظ المستعملة في الدلالة على الجوهر، في حين زاد تداول الألفاظ الدالة على الأشياء، فحديث المجالس لم يعد يتمحور حول البطولات، والإنجازات، والمواقف الكريمة، والصفات الحميدة، وإنما حول العقارات، والسيارات، وأسعار السلع، وأثاث البيوت، والأرصدة المالية.

٢. الرغبة في مزيد من الإنتاج لتحقيق مزيد من الاستهلاك جعل اعتماد الناس على الآلة يتزايد يومًا بعد يوم، وصار الإنسان ترسًا من تروسها، وصار دوره مكملًا لدورها؛ ومن طبيعة هذا الشأن أن يزيد اهتمامنا بالمظاهر، ويشغلنا عن الحقائق.

٣. كانت قيمة وجود الإنسان مستمدة مما يحسنه ويتقنه، وصارت المعادلة الجديدة مستمدة من مقدار ما أملك، ومقدار ما أستهلكُ! وهذا ولَّد الخوف الدائم من ذهاب الملكية. لأن ذهابها ذهاب لمالكها؛ واقتضى ذلك مزيدًا من الشح والأثرة والتقاطع.

٤. علاقتنا بالمعرفة تبدلت؛ فقد كان حب العلم واكتساب المعرفة من أجل الفقه في الدين وتنمية الشخصية ومعرفة الحياة... وكانت العملية التعليمية عبارة عن اندماج بين العلم وطالبه، أما الآن فقد صارت علاقة طالب العلم بما يطلب علاقة تجارية بحتة، فهو يتعلم لينال الشهادة؛ وحفظه للمعلومات ظاهري ينتهي عند إفراغها على الورق في الامتحان!

٥. كانت عواقب الاتجاه إلى الشكل والتغافل عن المضمون كثرة اللذائذ وانعدام السعادة! واللذة إشباع الرغبة على نحو لا يتطلب نشاطًا، مثل لذة الحصول على مزيد من الربح، أو هي: تجربة لحظة من لحظات الذروة يعقبها في الغالب نوع من الكآبة، ولا سيما حين تكون غير مشروعة، حيث يبدأ التقريع الداخلي.

أما السعادة فهي: شعور مصاحب للنشاط الإنساني؛ وهي أقرب إلى أن تكون حالة من الوجود المتصل على ربوة رحبة؛ لأنها وهجٌ لكينونة الإنسان، ونشاطه الداخلي.

ويمكن القول: إن السعادة في مقياسنا الإسلامي تتعاظم كلما ردم المسلم من الفجوة القائمة بين معتقداته وسلوكياته، حيث يرضى المسلم عن أدائه، ويستشرف عاقبة المتقين.

كل هذه التحولات باتجاه الشكليات جعلت كثيرًا من أمة الإسلام قوة عددية ليس إلا؛ لأن الذي يفقد الصلة بمكوناته الأساسية لابد أن يصبح شكليًّا. فهل تعيد الصحوة المباركة الأمر إلى نصابه بإعادة التوازن من جديد بين الشكل والمضمون، والجوهر والمظهر لنستأنف رسالتنا الحضارية؟! هذا ما نرجوه. وعلى الله قصد السبيل)[1].

• **الصفة الرابعة:** صفة ذي الوجهين التي جاءت في الحديث الصحيح:

«**تجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلا بوجه، وهؤلاء بوجه**»[2]، ويدخل في ذلك مداهنة الناس ومدحهم في وجوههم وذمهم في غيبتهم. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يعدون هذا من النفاق. فعن مجاهد أن رجلًا قدم على ابن عمر رضي الله عنهما فقال له: (كيف أنتم وأبو أنيس الضحاك بن قيس؟ قال: نحن وهو إذا لقيناه قلنا له ما يحب، وإذا ولينا عنه قلنا غير ذلك. قال: ذاك ما كنا نعده ونحن مع رسول الله ﷺ من النفاق)[3].

يقول ابن حزم رحمه الله: (الناس في أخلاقهم على سبع مراتب:

---

(١) مجلة البيان العدد (٦٨).
(٢) البخاري (٣٤٩٤)، مسلم (٢٥٢٦).
(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٨٢.

obeikandl.com

١. فطائفة تمدح في الوجه، وتذم في المغيب، وهذه صفة أهل النفاق من العيابين، وهذا خُلُق فاش في الناس غالب عليه.

٢. وطائفة تذم في المشهد والمغيب، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين.

٣. وطائفة تمدح في الوجه والمغيب وهذه صفة أهل الملق والطمع.

٤. وطائفة تذم في المشهد وتمدح في المغيب وهذه صفة أهل السخف والنواكة.

٥. وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة، ويثنون بالخير في المغيب، أو يمسكون عن الذم.

٦. وأما العيابون البرآء من النفاق والقحة فيمسكون في المشهد ويذمون في المغيب.

٧. وأما أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب. ومن كل من أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا)[1].

فما أكثر مثل هذه الصفات في حياتنا وأخلاقنا، وما أكثر من يداهن في الحق فيسكت عن بيان الحق، أو يقول الباطل مداهنة للناس رغبة في دنيا فانية، ولا سيما مع الوجهاء والأمراء.

(١) الأخلاق والسير ص١٠٨، ١٠٩.

obeikandl.com

• **الصفة الخامسة**: التثاقل في أداء الصلوات وقراءة القرآن وقلة ذكر الله ﷻ.

وقد مر بنا في صفات المنافقين قوله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢]، وكذلك قوله ﷺ: «**إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر**... الحديث»[1]. وكذلك مر بنا قول ابن عباس ﷺ عن المنافق مع القرآن (نقل الحجارة أهون على المنافق من قراءة القرآن)[2].

فلننظر إلى أحوالنا اليوم مع الصلاة والقرآن وذكر الله ﷻ، وكيف نشاطنا في ذلك، وكيف مسارعتنا إلى ذلك، وكيف سعادتنا وخشوعنا. إنه لمن المؤسف والمؤلم أن يوجد منا من لا يقوم إلى الصلاة إلا ثقيلًا، فتفوته صلاة الجماعة أو بعضها في كثير من الأحيان. ولا يقرأ القرآن ولا يذكر الله إلا قليلًا، ولا يخشع في صلاته إلا نادرًا، وهذه كلها من شعب النفاق وخصاله، نعوذ بالله من ذلك.

• **الصفة السادسة**: عدم الاهتمام بالدين وبأحوال المسلمين، والإعراض عن الدعوة والجهاد في سبيل الله.

---

(١) مسلم (٦٥١) والبخاري (٦٥٧).
(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٢/ ٣٥٤.

صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من شعب النفاق**»(١).

وقد جاءت في القرآن آيات كثيرة تصف المنافقين بكراهيتهم للجهاد والفرح بالقعود عنه، بل إنهم ينشطون في التثبيط عنه، وبث الخوف والإرجاف في المسلمين لإعاقتهم عنه. ووصفهم بأنهم لا يهتمون إلا بأنفسهم، ولا يهمهم بعد ذلك ما أصاب المسلمين من مصائب وكوارث.

قال الله ﷻ عنهم: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ [التوبة: ٨١]، وقال ﷻ: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٨]، وقال ﷻ: ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، والآيات في ذلك كثيرة.

والمقصود أن ترك الاهتمام بالدين، والإعراض عن الدعوة والجهاد، وعدم حديث النفس بذلك، هو من خصال وشعب النفاق وصفات المنافقين، فلنعرض أنفسنا على هذه الأوصاف، خشية أن تكون فينا ونحن لا نشعر.

(١) مسلم (١٩١٠).

وتحديث النفس بالغزو والدفاع عن الإسلام ونشره في الأرض لا يكون بمجرد القول والادعاء، وإنما لا بد أن يظهر في تصديق هذا الادعاء بالنية الصالحة، وإعداد النفس لذلك، والزهد في الدنيا، وأن نخرج عن دائرة الاهتمام بأنفسنا وأهلينا ودنيانا، إلى الاهتمام بأمر هذا الدين والدعوة إليه والجهاد في سبيل نشره، وأن يبدأ الإنسان بجهاد نفسه وهواه، ويتوب من ذنوبه، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: (جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا حتى يخرج إليهم، فإن قهر هواه عز وساد، ومن قهره هواه ذل وهان وهلك وباد)[1]، وهذا من أول مراتب الجهاد، ودليل على صدق تحديث النفس بالغزو. ومن علامة صدق الحديث مع النفس في الغزو الإنفاق في سبيل الله ﷻ، وسماحة النفس بذلك، لأن من صفات المنافقين البخل والشح. وإذا أنفقوا فبكراهية النفس، قال ﷻ عنهم: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، بل إنهم يثبطون الناس عن الإنفاق. قال الله ﷻ عنهم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون: ٧].

• **الصفة السابعة:** مخالفة الظاهر للباطن ومناقضة العلانية للسريرة.

يقول ابن رجب رحمه الله: (النفاق الأصغر كله راجع إلى اختلاف السريرة والعلانية، كما قال الحسن)[2].

(١) غذاء الألباب للسفاريني ٢/ ٣٥٨.
(٢) جامع العلوم والحكم ص٤٣٣.

obeikandl.com

وهـذا أهـم مظهـر من مظاهـر النفـاق، وقد يكـون سـببًا للنفاق الاعتقـادي والخروج من الملـة إذا وصل إلى حد إبطـان الكفر وإظهار الإسـلام -عيـاذًا بالله- وقـد يكون نفاقًـا عمليًّـا إذا كان أصل الإيمان موجودًا، ولكنه يبطن الكذب أو الغدر أو الخيانة، أو غير ذلك، ويظهر أضدادهـا؛ وهذا هو الذي يهـم العبد المؤمن الحذر منـه لكثرة من يقع فيه من المسلمين، وقد يؤول إلى النفاق الأكبر، كما قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (من أصر على نفاق المعصية خشي عليه أن يفضي إلى نفاق الكفر)[1].

ولهذا النوع من النفاق صور عدة منها:

(أ) إظهـار الزهـد في الدنيـا والرغبة في الآخرة، مـع أن الأمر في الباطـن خلاف ذلـك؛ حيث يكون حـب الدنيا قد تمكـن من القلب وسافر في أوديتها.

(ب) إظهار المحبة والشـفقة للناس وسلامة القلب نحوهم، مع تلبَّـس القلب بأمـراض كثيرة تناقض هذا الادعاء؛ كأمراض الحسـد والحقـد وإضمار الشر والغش لهم. وإظهار الغيبة لهم في قالب النصح والتوجع لهم. وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى صورة من صـور مخالفة الظاهر للباطـن. حيث يقول: (ومنهم مـن يخرج الغيبة تـارة في قالـب ديانة وصلاح، فيقول: ليس لي عـادة أن أذكر أحدًا إلا

(١) فتح الباري ١/ ١١١.

بالخير. ولا أحب الغيبة ولا الكذب، وإنما أخبركم بأحواله. ويقول: والله إنه مسكين أو رجل جيد، ولكن فيه كيت وكيت... ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب، فيقول: تعجبت من فلان كيف لا يفعل كيت وكيت، ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت... ومنهم من يخرج الاغتمام، فيقول: مسكين فلان غمني ما جرى له. وقلبه منطو على التشفي به)[1].

(جـ) إظهار الغيرة على الدين والحدب عليه، وأنه الهمُّ الشاغل للنفس، مع أن هذا الادعاء لا يتعد اللسان أو الكتابة، أما القلب فيكاد يفرغ من هذا الهم المدعى؛ لأنه قد امتلأ باهتمامات أخرى تسبق الاهتمام بالإسلام في سلم الأولوية. وهذه الصورة عادة ما تظهر عند بعض الوعاظ أو الخطباء أو الكتاب الذين يظهرون الحرقة والألم على الإسلام والمسلمين، والله أعلم بما في القلوب. فلننتبه لخطر هذه المناقضة، ولنحذر هذه الفتنة؛ فهي من صفات المنافقين التي ذكرها الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وعندما اعتذر المنافقون عن تخلفهم يوم الحديبية بانشغالهم بالأموال والأولاد كذبهم الله ﷻ بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٣٧-٢٣٨ (باختصار).

وبين لهم أن الذي في قلوبهم هو سوء الظن بالله ﷻ: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

(د) إظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع مخالفة ذلك في غفلة الناس من غير عذر في ذلك، قال ﷻ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

قال ابن الأعرابي: (أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد)[١].

وقال أبو عبيد السري: (النفاق خبث السريرة، فاتق الله أن يرى الناس أنك تخشى الله ﷻ، وقلبك فاجر)[٢].

• **الصفة الثامنة**: الوقوع في الحيل المحرمة:

إن التحايل بحيل يحل بها ما حرم الله ﷻ تعد ضربًا من ضروب الخداع والنفاق ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

ولو أن من يقع في الحرام يعتقد بحرمة ما وقع فيه، ويرى نفسه عاصيًا مذنبًا، لكان أهون بكثير ممن يفعل الحرام أو يفتي به معتقدًا

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٦٩٨٧).
(٢) تاريخ دمشق ٥/ ٨٦.

حله بحيلة باطلة أو شبهة داحضة أو تأويل فاسد، فجرم هذا وإثمه عند الله ﷻ أعظم بكثير ممن يرتكب المحرم معتقدًا حرمته. ومن الأمثلة المشهورة في ذلك تحليل المرأة المطلقة ثلاثًا من زوجها بنكاحها ثم طلاقها لتحليلها لزوجها وليس لقصد الزواج والنكاح، وهو ما يسمى عند الفقهاء بالتيس المستعار. وكذلك من يتحايل على الربا ببيوع العينة. يقول ابن القيم رحمه الله: (فلما كان القائل آمنت مظهرًا لهذه الكلمة غير مريد حقيقتها المرعية المطلوبة شرعًا بل مريد لحكمها وثمرتها فقط: مخادعًا كان المتكلم بلفظ بعت واشتريت وطلقت ونكحت وخالعت وآجرت وساقيت وأوصيت غير مريد لحقائقها الشرعية المطلوبة منها شرعًا، بل مريد لأمور أخرى غير ما شرعت له أو ضد ما شرعت له: مخادعًا. ذاك مخادع في أصل الإيمان. وهذا مخادع في أعماله وشرائعه. قال شيخنا: وهذا ضرب من النفاق في آيات الله تعالى وحدوده، كما أن الأول نفاق في أصل الدين، يؤيد ذلك ما رواه سعيد بن منصور عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه جاءه رجل فقال: ابن عمي طلق امرأته ثلاثًا أيحلها له رجل. فقال: من يخادع الله يخدعه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سئل عن العينة، يعني بيع الحريرة فقال: إن الله تعالى لا يخدع. هذا مما حرم الله تعالى ورسوله... فسمى الصحابة من أظهر عقد التبايع ومقصوده به الربا: خداعًا لله. وهم المرجوع إليهم في هذا الشأن، والمعول عليهم في فهم القرآن.

وقال أيوب السختياني في المحتالين: يخادعون الله كما يخادعون الصبيان، فلو أتوا الأمر عيانا كان أهون عليَّ.

وقال شريك بن عبدالله القاضي في كتاب الحيل: هوكتاب المخادعة، وكذلك المعاهدون إذا أظهروا للرسول ﷺ أنهم يريدون سلمه، وهم يقصدون بذلك المكر به، من حيث لا يشعر، فيظهرون له أمانًا، ويبطنون له خلافه، كما أن المحلل والمرابي يظهران النكاح والبيع المقصودين. ومقصود هذا: الطلاق بعد استفراش المرأة. ومقصود الآخر: ما تواطأ عليه قبل إظهار العقد من بيع الألف الحالة بالألف والمئتين إلى أجل، فمخالفة ما يدل عليه العقد شرعًا أو عرفًا: خديعة.

قال: وتلخيص ذلك: أن مخادعة الله تعالى حرام، والحيل مخادعة لله.

بيان الأول: أن الله تعالى ذم المنافقين بالمخادعة، وأخبر أنه خادعهم. وخدعه للعبد عقوبة تستلزم فعله المحرم.

وبيان الثاني: أن ابن عباس وأنسًا وغيرهما من الصحابة والتابعين أفتوا: أن التحليل ونحوه من الحيل مخادعة لله تعالى. وهم أعلم بكتاب الله تعالى.

... وإن المنافق لما أظهر الإسلام، ومراده غيره، سمِّي مخادعًا لله تعالى، وكذلك المرابي، فإن النفاق والربا من باب واحد، فإذا كان

هـذا الذي أظهر قـولا غير معتقد ولا مريد لما يفهـم منه، وهذا الذي أظهر فعلا غير معتقد ولا مريد لما شرع له: مخادعًا، فالمحتال لا يخرج عـن أحد القسـمين... إن الله تعالى أخبر عن أهل السـبت من اليهود بمسخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرم الله تعالى عليهم من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد. قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعيـة، ممن يتلبس بعلـم الفقه وهو غير فقيه. إذ الفقيه من يخشـى الله بحفـظ حدوده وتعظيـم حرماته والوقوف عندهـا. ليس المتحيل عـلى إباحة محارمه وإسـقاط فرائضه. ومعلوم أنهم لم يسـتحلوا ذلك تكذيبًا لموسـى عليه السلام وكفرا بالتوراة، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال ظاهره ظاهر الاتقاء وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا والله أعلم مسـخوا قـردة... وإن بني إسرائيل كانـوا أكلوا الربـا وأموال الناس بالباطـل، كما قصـه الله تعالى في كتابـه، وذلك أعظم مـن أكل الصيد الحـرام في يـوم بعينـه، ولذلك كان الربـا والظلم حرامًـا في شريعتنا، والصيد يوم السـبت غير محـرم فيها. ثم إن أكلة الربـا وأموال الناس بالباطل لم يعاقبوا بالمسـخ كما عوقب به مسـتحلو الحرام بالحيلة، وإن كانـوا عوقبوا بجنس آخر مـن العقوبات أمثالهم من العصاة. فيشـبه والله أعلـم أن هؤلاء لما كانوا أعظم جرمًا إذ هم بمنزلة المنافقين، ولا

يعترفـون بالذنب، بل قد فسـدت عقيدتهم وأعمالهـم كانت عقوبتهم أغلظ من عقوبة غيرهم)[1].

فهـل بقـي بعد هـذا النقل الصريح عـذر لمن يتحايـل على تحليل الحرام أو إسـقاط الواجبات بحيل وشبهات وتأويلات باطلة، سواء كان ذلك لنفسه أو يفتي به غيره؟! إن هذا الأمر خطير وجرمه عظيم، وعليـه فينبغي لمن خاف مقام ربه وخـاف عذاب الآخرة أن لا يخادع نفسه بتأويلات باطلة... يمتزج فيه الهوى والشهوة بالشبهة والتأويل الباطـل في تبريـر مخالفة شرع الله ﷻ. وكما مر بنا في النقل السـابق فإن كون العبد يقع في مخالفة شرعية معتقدًا حرمتها وشاعرًا بالذنب، وأنه ارتكـب محرمًا أهـون بكثير وأخف جرمًا وإثمًا من كونه يقع في الحرام أو ترك الواجب مسـتحلًّا لذلك بحيلة أو شـبهة باطلة، يضفي عليها الشرعية على فعله، فإن هذا ضرب من ضروب النفاق الخطيرة، لما فيه من الاستهانة بالله ﷻ وحرماته.

• **الصفة التاسعة**: الانشغال بعيوب الناس، وتتبع عثراتهم، وغيبتهم.

عن أبي بردة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخـل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا النـاس ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه**

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣٤٠-٣٤٤ باختصار.

مـن تتبع عوراتهـم تتبع الله عورتـه، ومن يتتبـع الله عورته يفضحه في بيته»[1].

وعـن أسـماء بنت يزيـد ﵂ قالت: قـال النبـي ﷺ: «**ألا أخبركم بخياركم**» قالوا: بلى. قـال: «**الذين إذا رؤوا ذكر الله**»، «**أفلا أخبركم بشراركم**» قالوا: بلى. قال: «**المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت**»[2].

ويقول الإمام أحمد ﵀: (من أحب الرياسة طلب عيوب الناس أو عـاب الناس)[3]. وقال عبدالله الجبلي: (مـن رأيته يطلب العثرات على الناس فاعلم أنه معيوب)[4]. وقال أحد السـلف: (من علامات الاستدراج للعبد عماه عن عيبه، وتطلعه إلى عيوب الناس)[5].

وما أجمل ما قاله الإمام ابن القيم ﵀ وهو يعدد حكم الله ﷻ في تخلية العبد بينه وبين الذنب، فيقول: (التاسع والعشرون: أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها، فإنه في شغل بعيبه ونفسه

(١) رواه أحمـد (١٩٧٧٦) وأبـو داود (٤٨٨٢) وصححـه الألبـاني في صحيـح الترغيب (٢٣٤٠).

(٢) رواه البخـاري في الأدب المفـرد (٣٢٣) وحسـنه الألبـاني في صحيـح الأدب المفـرد (٢٤٦).

(٣) الآداب الشرعية ٢/ ٣٤١.

(٤) التوبيخ والتنبيه ص ١٠١.

(٥) مفتاح الأفكار ١/ ١٤٠.

obeikandl.com

وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس. وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس، فالأول علامة السعادة، والثاني علامة الشقاوة[1].

يتبين لنا من خلال الأحاديث والآثار السابقة سوء هذه الخصلة وذمها، وأنها تنم عن نفاق ومرض في القلب وضعف إيمان. ويفهم هذا من قوله ﷺ «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه**».

وما أكثر اليوم من يقع فيها ليس من عامة الناس فحسب، بل إننا نراها تصدر من بعض المنتسبين للعلم والدعوة، فتراهم قد انشغلوا عن عيوب أنفسهم بتتبع عيوب وعثرات غيرهم من بعض الدعاة والعلماء، فتراهم يرمون غيرهم بما ليس فيهم أو يضخمون أخطاءهم إن وجدت، ويبالغون في نقدها وتحميلها ما لا تحتمل، وهذا كله يتم بذريعة الغيرة على دين الله ﷻ وكشف أهل البدع والضلال، والله أعلم بما في قلوبهم وسرائرهم. وإن مما يدل على عدم صدق بعضهم فيما يدعيه من القيام بواجب الدعوة وبيان ضلال المضللين، ذلك التناقض والمعايير المزدوجة الذي يمارسونها، حيث نجدهم يلوذون بالصمت إزاء ما يقوم به المفسدون المنافقون من إفساد لأديان الناس وأموالهم وأعراضهم في مجتمعات المسلمين، فأين الغيرة، وتتبع ضلالات هؤلاء المفسدين وفضحهم؟ بل وصل الحال إلى أن نجد

(١) طريق الهجرتين ١/ ٢٧١.

المـدح والثناء مـن هؤلاء المفتونين لأهل الفسـاد والظلـم والطغيان، والدفـاع عنهم في الوقـت الذي انبروا فيه لتتبـع عثرات إخوانهم من الدعاة والفرح بتصيدها، نعوذ بالله من الفضيحة والخذلان.

• **الصفة العاشرة:** حب المدح من الناس والبحث عن الشهرة

وهذا باب من أبواب الرياء والسـمعة، الذي يتسرب منه النفاق إلى القلب ويعشعش فيه.

يقـول الإمـام ابن القيـم رحمه الله: (لا يجتمع الإخـلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت)[1].

ويقـول إبراهيـم بـن أدهـم رحمه الله: (لم يصـدق الله مـن أحـب الشهرة)[2].

وهـذا من الآفـات القلبية التي تـدل على مرض القلب وتلبسـه بشـعبة من شـعب النفـاق، ولقـد انتشرت هـذه الآفـات عند بعض المنتسـبين اليوم للعلم والدعوة، ولا سيما وبعد هذه الثورة الإعلامية مـن مجلات وتلفـاز وقنوات فضائيـة، حيث ظهر فيهـا بعض الدعاة

(١) الفوائد ص١٤٩.
(٢) حلية الأولياء ٨/ ١٩.

obeikandi.com

وطلبة العلم وتزينوا فيها في المظهر والكلام والجرأة على الفتوى، مما ينم عن محبة بعضهم للظهور والشهرة ومديح الناس. وأخطر من ذلك أن يتزين الواحد منا بما ليس فيه، ويحب أن يمدح بما لم يفعل، فما أشنعها من صفة، ذمها الله ﷻ في كتابه وذمها رسوله ﷺ في حديثه.

قال الله ﷻ: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وجاء في سبب نزول هذه الآية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه «أن رجالًا من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ. فإذا قدم النبي ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ ﴾[1]. وقال الرسول ﷺ: «**المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**»[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وصيته المشهورة إلى أبي موسى الأشعري: «ومن تزين بما ليس فيه شانه الله».

يعلق الإمام ابن القيم رحمه الله على هذه الوصية، فيقول: (وأساس النفاق وأصله هو التزين للناس بما ليس في الباطن من الإيمان. فعلم

(١) البخاري (٤٥٦٧)، مسلم (٢٧٧٧).
(٢) البخاري (٥٢١٩)، مسلم (٢١٣٠).

أن هاتين الكلمتين من كلام أمير المؤمنين مشتقة من كلام النبوة، وهما من أنفع الكلام وأشفاه للسقام. وأيضًا فإنه أخفى عن الناس ما أظهر لله خلافه، فأظهر الله من عيوبه للناس ما أخفاه عنهم، جزاء من جنس عمله)[1].

• **الصفة الحادية عشرة**: عدم التألم من جراحات الذنوب

إن الاستهانة بمعصية الله ﷻ وعدم الشعور بالألم والحزن جراء اقتراف الذنوب، لهو علامة خطيرة على ضعف الإيمان ومرض القلب واستهانة بعظمة الله ﷻ، لأن المؤمن هو الذي تسره حسنته وتسوؤه سيئته، والمنافق من لا تسوؤه سيئته ولا تسره حسنته، كما جاء في الأثر. يقول ابن القيم رحمه الله: (وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها: بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته، وما لجرح بميت إيلام)[2].

(١) أعلام الموقعين ٢/ ١٦٩.
(٢) إغاثة اللهفان ص١/ ٦٨.